

دلندا الحسن
قلوب من نار

الكتاب: قلوب من نار (رواية)

تأليف: دلندا الحسن، روائية وفنانة تشكيلية من الأردن
لوحه الغلاف: دلندا الحسن

عدد الصفحات: 176 صفحة

الرقم المعياري الدولي للرواية: 2-182-67-9957-978

رقم الايداع في المكتبة الوطنية- المملكة الأردنية الهاشمية: 2018-10-5199

الطبعة الأولى: 2019

جميع الحقوق محفوظة © دار التنوير 2019

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر 

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

دلندا الحسن

قلوب من نار

رواية



المقدمة

لم يكن سهلاً عليّ عندما زرت الإمارات العام ٢٠١٧ وبعد غياب متواصل لِمُدَّة أربعة عشر عامًا أن أجد جزيرة أم النار قد تغيّر اسمها وأصبح ساس النخيل!

كان سبب زيارتي إلى مسقط رأسي؛ المشاركة في معرض أبو ظبي الدولي للكتاب لتوقيع روايتي الأولى (أحلام الأوركيدا). زُرت مدينة أبو ظبي وتجوّلت في شوارعها وأحيائها وكورنيشها. تغيّرت معالمها والكثير من الأماكن القديمة لم تعد موجودة أو تغيّرت أسماؤها.

كان لا بد من زيارة جزيرة أم النار التي ولدت فيها وعشت طفولتي وشبابي. كانت المنطقة السكنية التي نعيش فيها بعيدة عن صخب المدينة وتحيط بها الرمال، لكن الحال تغير، أصبحت الجزيرة مأهولة بالسكان وارتفع فيها العمران، ولم تعد تعيش فيها عائلات الموظّفين في مصفاة البترول، لذلك تملّكتني رغبة قوية لسرد تاريخ جزيرة أم النار؛ لأحافظ على ذكرياتي ونسختي الأولى من الحياة في الإمارات.

«كم تغنّي بالسّلم والحبّ والرّحمة
من شاعرٍ وفيلسوفٍ
أسفًا ضاعت الأغاني
ولم تبقى سوى ضجّة القتال العنيف».

الشاعرة العراقية نازك الملائكة

يخطئ مَنْ يظنُّ أن الحياة هي الوقائع فقط.
إن الأحلام والتخيُّلات التي تبدو غير واقعية
لها قوة الوقائع في صنع حياتنا.

النار الأولى

(١)

اليابان (١٨٨٨ م - ١٩٣٣ م)

شاطئ خليج أكو الياباني

محافظة مييه / قرية شيحا

عروسان صغيران يضمهما ليلٌ هادئٌ من ليالي ربيع اليابان الناعسة.
قمرٌ معلقٌ بين أغصان أزهار الساكورا. بدد عتمة المساء نور البدر باكتمال
استدارة محيطه، عاكساً خيالتهما الشفافة على رمال ناعمة تُدثر شاطئ
خليج أكو المطل على المحيط الهادي.

بحرٌ بشهيق أمواجه وزفيرها، صنع مدًا وجزرًا بين أيديهما المتعانقة،
لاذت من النسمة الباردة إلى دفء باطن اليد النديّة بالشوق. «أومه،
سأصنع لك حبة لؤلؤ تشبه وجهك الجميل»، همس الشاب الياباني
هادئ الملامح ميكيموتو كويتشي، في أذن عروسه بشفاه الحب والغزل
وأمنيات أخرى قادمة، مداعبًا بأنفه وجهها المستدير، متحسسًا بشرتها
الطفولية الطريّة، ذات اللون الحليبي المعجون بالحياة.

نظرت صوب فمه ثم نقلت بصرها إلى عينيه الساهيتين. همس لها
قائلًا: «أومتى يا نسمة من الجنة. يا شطآني وأمواجي. لؤلؤتي الغالية
أنت».

أخفت عروسه نصف ضحكتها باليد التي تحمل خاتم زواج وضعته

للتوّ، أما النصف الآخر من الضحكة فتغصّنت به عيناها راسمة سعادة
جوّانية، وبانت غمّازتا خديها المحيطتين بفهما الوردى الصغير.

تسلّلت يده بخفّة لتحلّ وثاق الشريط الحريري المعقود على شكل
نجمة، تضمّ فيه خصلات شعرها الذي بدا فضيًّا تحت ضوء القمر.
ترك الشريط يفلت من يده، ليحلّق مع أزهار الساكورا المترافضة، على
وقع سيمفونية النسيم الحالم الذي هبّ صوبهما يجر مع أذياله سربًا
من الأزهار الوردية الناعمة، المتطايرة من أغصان أشجارها المتعانقة،
لتُشكل غيمةً دارت حولهما وارتفعت عاليًا نحو الفضاء. سافرت إلى
عين القمر الذي يحرسهما لتنشر عطر قلبيهما في الكون الفسيح.

دفن ميكيموتو كويتشي وجهه في شعر أومه، يتشمّم رحيقه المختلط
بعطر جسدها، ليغيبا داخل عناق رقيق في جوف خيال قصص الأساطير
المنسيّة. ضحك الليل، وصهل حصانهما الأبيض صهيلاً خافتًا بالحب.

ضع حُلمك يا ميكيموتو كويتشي داخل الموجه القادمة. بسرعة
أودعه في البحر ولا تتأخّر. أودع العروسان حلمهما بزراعة اللؤلؤ في
موج البحر الذي صفّق بصوت عالٍ على الصخور المحيطة بخليج أكو
الياباني. نطلق الأمنيات المستحيلة في فضاء التجليّ وقت نضوج القلب
بالسعادة الحقيقية.

لكن، هل ستحقّق أمواج البحر أمنيته؟

* * *

أخذ ميكيموتو كويتشي قرصًا ليبدأ بمشروع زراعة اللؤلؤ كما وعد
زوجته. جمّع المحارات وفتحها برفقٍ ثمّ وضع داخلها في زاوية معينة
جسمًا غريبًا، وتركها داخل أقفاص في البحر الكبير. لكن حبات المحار
خذلته وماتت جميعها. أحس بطعم الخيبة مالحًا في حلقة. غمغم بأغانٍ
حزينةٍ من وحي نعيق النوارس البيضاء المحلّقة حوله قرب الشاطئ:

«اتبع أثر أحلامك... الدفء لن يتلاشى منها... أحلامك تعيش داخلك
وتنبض بالأمل».

استمر بالتجريب بعزيمة لا تعرف المستحيل لسنوات متتالية رغم
ما تعرّض له من سخرية واستهزاء من الناس. في يوم من أيام شهر
يوليو العام ١٨٩٣ عبث ميكيموتو كويتشي بمحاراته المزروعة،
وكانت المفاجأة؛ جسم صلب بلون البيض المتوشّح باللون الوردي
كخديّ حبيته أومه، حبة لؤلؤ شبه كروية تغفو بخجل داخل سائل
لزج، ينكسر عليها الضوء مشكّلاً بريقاً باهراً. صنع لأومه عقداً
تلاّأت في منتصفه حبة اللؤلؤ الأولى بين عظمتي الترقوة عندما
وضعت حول عنقها.

عشق ميكيموتو كويتشي لأومه كان مفتاحاً أخرج منه الكنوز الدفينة
من العزيمة والنجاح، كحبة اللؤلؤ الغافية في صدر المحارة تنتظر يد
عاشقها كي يفتح صدفها المغلقة ويظهر جمالها الفريد.

* * *

طوّر ميكيموتو كويتشي أساليب زراعة اللؤلؤ ونجح في تسويقه
لكنه توقّف قسراً عن عمله من العام ١٩١٤ وحتى العام ١٩١٨؛ بسبب
الظروف السياسية والاقتصادية الصعبة التي واجهها جراء مشاركة اليابان
مع قوات الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. احتلت القوات البريطانية
فلسطين بعد طرد العثمانيين منها، وأصدر وزير الخارجية البريطاني آرثر
بلفور وعده بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، على أثر
ذلك تشكّلت أولى منظمات المقاومة الوطنية الفلسطينية ومنها المنتدى
العربي والنادي العربي.

في العام ١٩٢٠ عُقدَ مؤتمر سان ريمو للقوى المنتصرة في الحرب،
وصدر من خلاله قرار منح بريطانيا حق الانتداب على فلسطين؛ فاندلعت

التظاهرات في مدينة القدس بتحريض من مفتي القدس؛ احتجاجاً على
القرار وتأكيداً للهويّة الفلسطينية العربية.

* * *

انتهت الحرب العالمية الأولى، وعاد ميكيموتو كويتشي إلى نشاطه
التجاري في بيع اللؤلؤ الزراعي الذي أخذ ينتشر بالتدريج خارج اليابان،
منافساً بذلك تجارة اللؤلؤ الطبيعي من حيث شكل حبات اللؤلؤ وتعدّد
ألوانها، محققاً نجاحاً كبيراً في جميع أنحاء العالم، مما أثر سلباً في مهنة
الغوص على اللؤلؤ في الدول المطلة على امتداد ساحل الخليج العربي
في شبه الجزيرة العربية.

بسبب حُلمك يا ميكيموتو كويتشي بزراعة اللؤلؤ لن تأتي سفينة
النوخذة خليفة الحبيب باللؤلؤ الطبيعي من جديد. لكن، لماذا قرّرت يا
نوخذتنا بعد آخر رحلة للغوص على اللؤلؤ عدم العودة إلى وطنك في
جزيرة أبو ظبي؟ وإلى أين ستحملك الأمواج القادمة؟ وهل ستقدر على
مواجهة قدرك المكنون وحيداً؟

(٢)

إمارات الساحل المتصالح^(١) (١٩٣٣ م - ١٩٧٠ م)

من شاطئ جزيرة أبو ظبي

إلى شاطئ سلطنة عُمان

كان النوخذة خليفة الحبيب ربّان سفينة البوم الشراعية من أوائل من خرجوا من شاطئ جزيرة أبو ظبي في رحلات الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي، يطوي بعد كل رحلة في جعبته كنزه المتلألئ من الدانات الثمينة، يدثرها بمنديله المخملي الأحمر.

قاوم النوخذة خليفة الحبيب الظروف الصعبة التي دخلت فيها المنطقة في أوائل الثلاثينيات من كساد تجاري في سوق اللؤلؤ الطبيعي بسبب منافسة سوق اللؤلؤ الياباني المزروع الذي ابتكره ميكيموتو كويتشي. فلم يَجِنِ في رحلته الأخيرة حبات لؤلؤ كافية تمكّنه عند بيعها من سداد قروضه المتراكمة لتاجر هندي يدعى راو موهان الذي نفذ صبره وهدّده أكثر من مرة ؛ فأمر النوخذة بتغيير اتجاه السفينة صوب شاطئ سلطنة عُمان رغم اعتراض الغواصين، إذ لم يكن أمامه سوى هذا الخيار علّه يجد حلاً ينقذه من ظرفه العسير.

(١) كانت تسمى دولة الإمارات العربية المتحدة قبل قيام الاتحاد بإمارات الساحل المتصالح.

كان التاجر الهندي يشتري اللؤلؤ من إمارات الساحل المتصالح والبحرين والكويت، ويبيعه في الهند؛ حيث كانت منطقة الخليج تدار هناك من قبل مركز حكومة الهند البريطانية. استطاع بصبره وإصراره عندما اكتُشف النفط في الإمارات بداية الستينيات أن يؤسس مع أبنائه وأحفاده شركات تجارية في مجالات مختلفة، وهكذا سيطر كغيره من الهنود على التجارة في منطقة الخليج العربي.

* * *

وصلت سفينة نوخذتنا إلى شاطئ سلطنة عُمان. تفرّق رجاله كعقد قُطِعَ حبله وتناثرت حباته بعد أن وزّع بينهم حبات اللؤلؤ ليتدبروا أمرهم، وبقيت مع نوخذتنا حبة لؤلؤ واحدة احتفظ بها.

أَجْرُ النُوخْدَةِ سفينته للبحارة العُمانيين حتى يتمكن من جمع المبلغ المطلوب لیسدد قروضه، فقد كانت حركة الملاحة والتجارة نشيطة بين سلطنة عُمان وجزيرة زنجبار الواقعة قبالة السواحل الشرقية لقارة أفريقيا. لكن أطماع الاستعمار البريطاني في خيرات جزيرة زنجبار كانت سبباً في قيام الحرب فيها العام ١٩٦٤، فهرب سكانها بواسطة السفن عبر المحيط الهندي نحو شواطئ سلطنة عُمان. حملت سفينة النوخدة فتاة جميلة كانت من مغنيات قصر السلطان، أشفق النوخدة عليها وتزوجها مقدماً لؤلؤته الوحيدة مهراً لها.

أنجب النوخدة منها صبياً سمياًه السومري، تميّز بشعره الأسود المجعد الذي يشبه شعر والدته ويحمل ملامحها الأفريقية، وله عينان تشبهان عيني والده النوخدة خليفة الحبيب الحادّنين كصقر.

كان السومريُّ يحمل بيده دائماً قطعة خشب بيضاء على شكل حصان، نحتها له النوخدة يوم ذهب يتجوّل في إحدى المزارع، ووجد شجرة غريبة لونها أبيض فيها عروق حمراء وصفراء، تحمل ثماراً صغيرة كروية زرقاء على شكل عناقيد، عندما لمسها كانت ساخنة. قطع النوخدة من الشجرة

فرعاً ليشمّه معتقداً بأنه نوع من أنواع التوابل. فجأة، تغيّر لون العروق في القطعة المقطوعة إلى اللون الأحمر القاني، ثم أصبحت بيضاء صافية وقاسية جداً. قرفص على الأرض، وأخرج من جيبه المفلجة التي كان يفتح بها حبات المحار- كآخر عهد من تلك الأيام المنسيّة- وبضربات سكينته نحت شكل حصان في قطعة الخشب.

في أحد الأيام، دُعرت سيدة عجوز عندما شاهدت طقوس السومريّ الغريبة في اللعب. كان يأخذ من والدته البوشيه⁽²⁾ ليضعها على رأسه، يتمم بكلمات غير مفهومة، يتكلّم مع حصانه الخشبي، ويرسم على الرمال رموزاً وإشارات. كان يسبح بمهارة رغم صغر سنه، ويغوص لأعماق البحر ليجمع محارات اللؤلؤ. أخبرت السيدة العجوز والدته أن الشجرة التي نُحِتَ منها الحصان مسحورة، لكن لم يكثر أحد لما قالته العجوز، بل بالعكس فرح والده النوخذة وأعجب بقدرات ابنه.

جمع نوخذتنا المبلغ المطلوب ليسدّد ديونه للتاجر الهندي. قرر العودة إلى جزيرة أبو ظبي وشدّ الرحال مع زوجته وابنه نحو وطنه، بعبور الطريق الصحراوي عبر منفذ منطقة البريمي. لكن نوخذتنا أصيب بالحُمى لافظاً على أثرها أنفاسه الأخيرة. أكملت زوجته والسومريّ مسيريهما بغير هدًى حتى وجدا بعض البدو ينصبون الخيام بالقرب من المدافن الأثرية في جزيرة أم النار. لجأ الاثنان إليها؛ فقد مرّت عليهما أيام لم يأكلا فيها ولم يشربا بعد أن نفذ الكلاً والماء. كانت الخيام بالقرب من البعثة الدنماركية المتخصصة في البحث والتنقيب في مدافن الموقع الأثري يرافقها عالم الآثار عاهد الغريب والمصوّر أسعد الشرع. شاهدتهم السومريّ من بعيدٍ بسبب حدة بصره. اقترب منهم بهدوء وحذر، وتسلّل نحو المدافن.

(٢) البوشيه: غطاء طويل تستخدمه النساء في منطقة الخليج، يوضع على الرأس وينسدل على الكتفين والصدر، وهو مصنوع من قماش ملون.

(٣)

دولة الإمارات العربية المتحدة (١٩٧١م - ١٩٧٥م)

إمارة أبو ظبي

مدافن جزيرة أم النار الأثرية

ألقى الباحث في علم الآثار عاهد الغريب نظرة أخيرة على التقرير، الذي أعدّه عن تاريخ آثار مدافن حضارة جزيرة أم النار، خلال عمله الميداني مع البعثة الدنماركية، التي بدأت أعمالها منذ العام ١٩٥٩. كان فريق البعثة مؤلفاً من ٣٤ آثارياً دنماركياً بقيادة الباحثين (بي. في. غلوب) و(تي. جي. بيبي).

اكتُشفت في جزيرة أم النار الواقعة قبالة ساحل إمارة أبو ظبي، مقبرة تعود لحضارة أم النار في العصر البرونزي، مكوّنة من خمسين مدفناً فوق سطح الأرض، ومستوطنة سكنية عاش فيها سكّان الإمارات الأوائل، حيث كانوا يمارسون الصيد ويصهرون النحاس ويعملون بالتجارة مع بلاد الرافدين في العراق، وبلاد السند في الهند وباكستان. واكتُشف لاحقاً النفط في الجزيرة بعد عمليات التنقيب عنه، وأنشئت مصفاة بترول لتكريره.

رُممت آثار المستوطنة السكنية والمقبرة، وشُحنت جميع المكتشفات فيها إلى متحف في مدينة أرهوس في الدنمارك ليجري حفظها وتسجيلها ودراستها، ومن ثمّ إعادتها إلى المتحف الوطني في إمارة العين.

سَلَّم عاهد الغريب نسخة من تقريره إلى فريق تلفزيون أبو ظبي المرافق لهم، ليستعينوا به في إعداد فيلم وثائقي سيبت ضمن سلسلة البرامج التلفزيونية عن تاريخ الإمارات.

كان يقف خلف آلة التصوير في زاوية الموقع الأثري رجل ضخم الجثة وطويل القامة، ذوبشرة شقراء. يضع على رأسه طاقية تحمي صلته من حرارة الشمس الحارقة في الصحراء. ينتعل حذاءً رياضياً يمكنه من التنقل بنشاط في الموقع؛ فمن الصعب الإمساك به.

«مسيو أسعد»، رفع المصوّر أسعد الشرع رأسه من خلف عدسة آلة التصوير ليري من المنادي. كان صوت الباحث عاهد الغريب الذي أشار إليه أن يلتقط بعض المشاهد المهمة من زاوية معيّنة تبرز شكل قباب المدافن المبنية من الحجارة المشدّبة ذات الأسقف المرتفعة، والجدران الدائرية المزخرفة بنقوشٍ تمثل حيوانات المها، والثيران، والثعابين، والجمال.

* * *

بعد أن أنهى أسعد الشرع دراسته الجامعية، في مجال الإعلام في الجامعة، تمكّن من الحصول على عقد عمل في تلفزيون أبو ظبي من بداية تأسيسه في العام ١٩٦٩؛ حيث كان البث آنذاك باللونين الأبيض والأسود. وبعدها بخمس سنوات تقريباً أصبح البث بالألوان.

لم تكن الطريق أمامه مفروشه بالورود بل بالأسلاك الشائكة والحواجز. كان طفلاً صغيراً لا يعي الحوادث وقت نزحت أسرته من قضاء عكا شمال فلسطين عبر الطرق البرية إلى سوريّة واستقروا في مخيم حمص للاجئين الفلسطينيين بعد حرب ١٩٤٨م.

فقد طوّق الجيش الإسرائيلي المدينة واحتل تل الفخار والمقبرة الإسلامية، ثمّ لوّث مياه نبع الكابري بجراثيم التيفوئيد. شن مناصلو

عكا هجوماً على المحتل، وكانوا بانتظار القوات النظامية العربية، لكن المدفعية الإسرائيلية منعتهم من الوصول إلى شمال فلسطين، فاستسلم المناضلون وانسحبوا بعد نفاذ الذخيرة، والتعب، والجوع والمرض.

ضاق أسعد الشرع ذرعاً بصعوبة الأوضاع الحياتية في المخيم، سواء من غلاء المعيشة، وانتشار البطالة، وفرص العمل المحدودة، أو من المداهمات الأمنية وحملات الاعتقال لأبناء المخيم الذين ظل معظمهم في عداد المفقودين. عاش الفلسطينيون في مخيمات اللجوء في المنطقة الرمادية من الأوطان التي وُزِعوا عليها في شتات مزّقه كل ممزق لتبتلعهم حفرة اللانتماء.

دخل الجامعة وورّع وقته بين الدراسة والعمل ليستطيع سداد أقساطها، ثمّ حصل على عقد عمل في الإمارات. كانت فرصة كبيرة انتشلته من براثن الفقر والحرمان ليحقّق طموحه.

خلف عدسة آلة التصوير وجد نصفه الآخر؛ المذيعة سميرة الزاجي. تزوجها بعد قصّة حب امتدت فصولها بين كواليس استديوات تلفزيون أبو ظبي، وشكلاً ثنائياً إعلامياً مميّزاً.

حصلت سميرة الزاجي على ليسانس الآداب في اللغة الإنجليزية بتقدير امتياز من جامعة دمشق. شخصيتها القوية، وإتقانها لثلاث لغات: العربية، والإنجليزية، والفرنسية، مكّنها من الحصول على وظيفة في وزارة التربية والتعليم في إمارة أبو ظبي.

حملتها الغربة على جناحها للعمل في السلك التعليمي بعرض مالي سخّي كان فرصة لتتمكّن من مساعدة أهلها في مصاريف الحياة القاسية. رغم محدودية إمكانات أسرتها المادية، شجعها والدها ودفعها لتسلّح بالعلم في الزمن الغريب والمتقلّب؛ لإيمانه العميق بأهمية التعليم وخاصة للإناث.

هاجرت عائلتها إلى سورية بسبب العدوان الإسرائيلي على مدينة صنفد بعد حرب ١٩٤٨م، وسكنوا مع باقي العائلات في مساجد مدينة دمشق ومدارسها إلى أن بُني مخيم اليرموك الذي أصبح في ما بعد أكبر تجمّع لفلسطينيي الشتات في سورية.

وُلدت سميرة الزاجي في مخيم اليرموك. لم تسمع عن فلسطين وتراها إلا في حديث والدها عن ذكرياته فيها. عمل والدها معلمًا في مدارس وكالة الغوث في المخيم، وحصلت أسرته على وثائق سفر سورية. لم تُمنح الجنسية العربية للفلسطينيين الذين هاجروا من مدنهم قسرًا بعد حوادث حرب ١٩٤٨م. وذلك حفاظًا على هوية القضية وخوفًا من أن يستوطنوا البلاد التي لجأوا إليها، وضمانيًا لعودتهم إلى ديارهم.

سافرت سميرة الزاجي مع مجموعة المعلّمات لتلتحق بعملها الجديد في إمارة أبو ظبي. مرت لحظات وحشة وفراغ على المعلّمات المغتربات في السكن والقادّات من دول عربية عدة: الأردن، سورية، مصر، المغرب العربي، السودان، العراق. تجاوزن وطأة الغربة والفراق بالتفافهن حول بعضهن يطبخن ويثرثن، وفي المساء يشاهدن التلفاز.

لم تكن المكالمات الهاتفية بالأمر المتاح؛ فكنّ يلجأن إلى كتابة الرسائل المبلّلة بالدموع والآهات. كانت إحدى المعلّمات ما إن تنتهي من كتابة رسائلها حتى تقبّلها بعد أن تضع أحمر الشفاه على شفّتها. وأخرى تشرع بالبكاء ما إن يبدأ مسلسل السهرة على قناة أبو ظبي وتندمج مع حوادثه. كل واحدة منهن كانت تنفّس عن غربتها وفقدانها بطريقتها الخاصة.

أما سميرة الزاجي فشغلت معظم وقتها بالأنشطة اللا منهجيّة للمدرسة؛ لتضيق الخناق على لحظات الوحدة وهواجسها القاتمة، ولا تقع في شركها القاسي. لجأت إلى البحر، تتأمّله، وتساله، وتبوح له بمكنونات قلبها. تكتب مذكراتها في دفترها الصغير. تتحرّر من ضعفها أمام أمواج

البحر فقط؛ لتعود روحها قوية وصلبة قادرة على إكمال المشوار الذي بدأت به.

لكن الفرص تأتي من حيث لا ندري. تميّزت سميرة الزاجي بإعداد وتقديم فقرات برنامج خاص لتلفزيون أبو ظبي، بمشاركة طالباتها في مدرسة أم عمار للبنات، احتفالاً بذكرى جلوس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكمًا لإمارة أبو ظبي. خبأ لها القدر داخل هذه المناسبة فرصتين، الأولى: عرضت عليها إدارة التلفزيون فرصة للعمل مذيعًا، والثانية: لقاءها مع المصور أسعد الشرع.

تقابلًا أول مرة في استديو نشرة الأخبار. تميّزت سميرة الزاجي بأسلوبها الخاص في الإلقاء. أحسّت بوهج عينيه من خلف عدسة آلة التصوير، ولم تخش الوقوف أمامها. قطفت ثمار جهودها بعد مدة وأصبح لها برنامج أسبوعي، يبث على الهواء مباشرة مساء كل يوم جمعة.

لم تكن أي فتاة تروق لأسعد الشرع بسبب مزاجه الصعب وطبعه العصبي. لفتت نظره إليها باجتهادها في عملها وانضباطها، وكان هذا مفتاحه؛ حيث وجد فيها امرأة قوية قادرة على شق طريق الحياة معه، تغار عليه من باقي المذيعات ولا تتحمل وقوفه مع إحداهن، وتخاصمه لحين تبرير موقفه.

وقف أسعد الشرع خلف آلة التصوير في جميع البرامج التي قدّمها. أصبح للأيام طعم ونكهة بددا شعور الغربة عندهما، ينتظران قدوم نهار جديد ليلتقيا. كثرت الإشاعات حولهما. أزعج ذلك سميرة الزاجي. فبدأت تقلل من ظهورها معه. وفي أول إجازة سافرا إلى سوربة؛ ليعقدا قرانهما وسط أسرتهما.

* * *

وقف الباحث عاهد الغريب مع المصوّر أسعد الشرع يتباحثان حول تفاصيل الفيلم الوثائقي ومعلومات التقرير. في أثناء ذلك لم يلاحظ الرجلان المنشغلان بالحديث أن صبيًا تسلل بخفة نحو موقع مدافن أم النار الأثرية، يرتدي ثوبًا عربيًا قصيرًا باليًا. يعلّق برقبته كيسًا قماشياً مربع الشكل. يركض حافي القدمين بسرعة كبيرة، ساعده في ذلك وزنه الخفيف، وبنية جسمه الضئيلة، وقامته القصيرة.

كان العمّال من الجنسيات الآسيوية يقومون بأعمال الفرز، ونفض التراب بفرشاة خاصة عن المسكوكات البرونزية والأواني الفخارية الحمراء، المكتشفة في موقع الآثار. لمح أحد العمّال شيخ الصبي، وركض خلفه محاولاً الإمساك به لكنه أفلت منه، وهرب بسرعة متوجّهاً صوب صوت والدته وهي تنادي: «يا السومريّ. يا السومريّ».

عندما فر هاربًا من المدافن مختفيًا داخل سراب الصحراء كان كيسه المتدلي من عنقه متفخًا بقطع أثرية جنبًا إلى جنب مع حصانه الأبيض الخشبي المسحور. «وينك يا وليدي يا السومريّ»، قالت والدته والخوف يملأ سؤالها. ابتسم وهو يخرج من كيسه حصى غائمه من دبابيس الشعر الذهبية، وقطع الحلبي النسائية، ومراد كحل برونزية، والأسلحة النحاسية، وبقايا جلود وعظام عجل البحر الذي عاش قديمًا على شواطئ جزيرة أم النار، ثم انقرض نتيجة تغيّر الظروف المناخية والطقس مع مرور الزمن. أمرته والدته: «يُمّه يا السومريّ، روح رجع الأغراض لأهلها». لكنه لم يجب على طلبها، وأخذ يلعب بالقطع الأثرية المسروقة مع حصانه. وظل السومريّ بين الحين والآخر يذهب إلى المدافن ليسرق بعض القطع.

ألح أسعد الشرع على عاهد الغريب أن يقبل دعوته لتناول وجبة العشاء بمناسبة انتهاء التصوير. حاول الأخير الاعتذار، لكنه قبل الدعوة تحت إصرار المصوّر وبراعته في وصف الطعام اللذيذ الذي تعدّه زوجته

المذيعة سميرة الزاجي، ومهارتها في طبخ الأكلات الفلسطينية الشعبية التي يفتقدها عاهد الغريب الأعزب بسبب غربته وعمله في الصحراء لفترات طويلة.

عندما همّ عاهد الغريب لمغادرة الموقع، لوّحت له من بعيد الفتاة البدوية؛ حمده. كانت تتودّد له بالطعام وترسل له الثريد والهريس. تقف بالقرب من الموقع كعين تحرسه بنظرات عينيها المكحلتين من بين البرقع الذي تضعه على وجهها، تشي تصرفاتها بعاطفة قوية، لكن عاهد الغريب قاوم هذه المشاعر، ولم ينجرّف خلفها.

* * *

سافر عاهد الغريب مع شقيقه طه من مخيم الشاطئ في قطاع غزة للعمل في الإمارات في نهاية الستينيات بمساعدة أحد أصدقائه الذي تمكّن من أن يأتيهم بعقود للعمل هناك. كانت إجراءات سفرهم صعبة للغاية كونهم يحملون وثائق سفر مصرية.

أنهى عاهد الغريب دراسة التاريخ والأنثروبولوجيا في إحدى جامعات القاهرة. عمل موظفًا في بلدية غزة. كانت الظروف السياسية المحيطة بشقيقه طه الغريب السبب الذي دفعه للبحث عن فرصة عمل في الخارج لينقذه من خطر يوشك أن يقع فيه.

كان عاهد الغريب يبلغ السبع سنوات عندما قصفت قوات الاحتلال الإسرائيلي من تل أبيب حي المنشية أكبر حي في يافا بقنابل المورتر البريطانية. لا ينسى يوم كان يجلس في منزلهم المطل على البحر مع جدته القبرصية تعزف الأناشيد على البيانو وتغني له بصوتها العذب. كان الفصل ربيعًا والأشجار عقدت أزهارها. اكتست التلال بالعشب الأخضر، والزنبق، وصابون الراعي، وأثمرت أشجار اللوز، وجاد البحر بالسردين والأسماك.

بدأ القصف، ودب الرعب بين الناس؛ فهربوا صوب الميناء. أصابت جدته طلقة رصاص وماتت على الفور. ظل يبكي وهو متشبث بها، لا يريد تركها لكن والده حمله بسرعة وركبوا في القوارب الراسية في الميناء وأبحروا باتجاه مدينة غزة. بعد ثلاثة أيام كانت أرض يافا مخضبة باللون الأحمر، ليس من تفتح زهر الدحنون بل من دماء شهداء المدينة.

سكنوا في منزل صغير في مخيم الشاطئ في مدينة غزة، يتكوّن من غرفتين ودورة مياه مشتركة مع عائلات أخرى في المخيم. أنجبت والدته أربعة عشرة ولداً؛ ففساء المخيم رغم شظف الحياة كن في سباق لا يعرف الهوادة لإنجاب الذرية إيماناً منهم بأن مقاومة الاحتلال تعتمد على رجال كثر لتحرير الأراضي المقدسة.

كاد شقيقه طه الغريب -الملقب بالدنمو- أن يُزج به في سجن عسقلان بعد آخر عملية فدائية نفّذها مع رفاقه المتتمين إلى كتائب عز الدين القسام، الجناح العسكري لحركة حماس ضد الاحتلال. دراسة طه الغريب لتخصّص الهندسة الكيميائية في الجامعة مكّنته من صنع القنابل التي ينفّذون بها العمليات.

لولا لطف القدر لما استطاع عاهد الغريب إخفاء شقيقه في قبو لا يعرف به إنسٌ ولا جان. حاول ثنيه عن صنع القنابل، لكن عناده الشديد حال دون تغيير قناعاته. عاش والداه في ذعرٍ دائمٍ وخوفٍ عليه من أن يُعتقل. وقتها لن يتمكن أحد من رؤيته مرة أخرى.

لم يكن إقناع طه شقيق عاهد الغريب بالعمل في الإمارات بالأمر السهل؛ فقد رفض فكرة السفر بشدة، وبعد عدة أيام غيّر رأيه. أثار هذا التحوّل المفاجئ في قراره حفيظة عاهد الغريب. وبعد سنين سيكون هذا الأمر سبباً لاشتعال نار فرقت قلبين صغيرين لا ذنب لهما في حروب الكبار.

عمل طه الغريب في إحدى الشركات الهندية التي أسسها التاجر الهندي راو موهان في دبي، والتحق عاهد الغريب بالبعثة الدنماركية في أبو ظبي، حيث كانت تجوب منطقة الخليج العربي للكشف عن تاريخها وحضارتها، خاصة بعد اكتشاف النفط وبداية حركة النهضة.

في شبابه كان عاهد الغريب يفرّ من أحزانه وضيق الحياة في مخيم الشاطئ ويخلو بنفسه في مناطق الآثار في غزة: تل العجول، مسجد السيد هاشم، آثار قصر الباشا، وحمام السمرة في حي الزيتون. فنما شغفه بالآثار القديمة، وقرّر أن يكمل دراسته في علم الآثار في الجامعة.

* * *

وصلت السيارة السوداء من ماركة شيفروليه الأمريكية أسفل العمارة ذات الخمسة طوابق والمطلّة على كورنيش أبو ظبي. كان المساء رغم رطوبته الدبقة وقتاً أفضل للسمر بعد الرحلة الصحراوية، وارتفاع الحرارة عند الظهر.

أطفأ عاهد الغريب محرك سيارته. سكن ضجيجها تدريجياً وحل مكانه صوت أمواج البحر المتتابعة في مدها وجزرها على الشاطئ الرملي القريب. بحركات سريعة من أطراف أصابعه عدّل خصلات شعره الرمادية الكثيفة أمام مرآة السيارة، له عينان شهلاوان يموج لونهما بين الأزرق والأخضر والعسلي بحسب ألوان ملابسه، مما أعطاه جاذبية في مظهره الرجولي، خاصة مع تقاطع لون عينيه مع بشرته الحنطية ووجهه المستطيل. منذ بلوغه وهو يغطي الشامة الكبيرة على خده بإنبات لحية خفيفة عليها؛ لأنه لا يحب منظرها.

ترجّل من السيارة حاملاً بيده باقة من الزهور اشتراها من أحد المتاجر في الطريق. تساءل في نفسه عن ذوق صاحبة البيت في نوع الأزهار الذي تحبّ. تردّد كثيراً واحترار، وفي النهاية حسم أمره واختار زهرات كبيرة

تفتّحت حديثاً من الزنبق الوردي الموشَّح بمشحات من اللون الأصفر، تشي بكثير من الأنوثة والجرأة. شعر عاهد الغريب بالحرص من أن يدخل خالي اليدين، خاصّة أنها المرة الأولى التي يزور فيها منزل أسعد الشرع وزوجته سميرة الزاجي.

رفع نظره نحو الطابق الخامس وشدّ خطاه نحو مصعد العمارة. كان عاهد الغريب يكره طبعه الخجول في التعامل مع النساء، وتمنّى ألاّ يلاحظ عليه أحد احمرار وجنتيه عندما يرتبك أمامهن. وقف أمام مرآة المصعد يعاين بدلته ذات اللون البني والمتناسقة مع ربطة عنقه. كان جذعه أطول من عظمتي فخدّيه. نحتت ممارسته المستمرة للسباحة في بحر غزة جسده ليبدو رياضياً رشيقاً ومشدوداً.

استقبله الزوجان السعيدان بحفاوة وترحاب. شعر بالطمأنينة في بيتهما الدافئ بالحب والعطر، وأضواء الشموع التي زينّت مائدتهم العامرة بالخير والكرم. في تلك السهرة لا يتذكّر عاهد الغريب من سميرة الزاجي سوى فستانها الطويل ذي اللون الأسود، بأذرع من الشيفون يغطي يديها، وحذاء يصدر طقطقة خفيفة على الأرضية الرخامية، فيميز وجودها من ابتعاد صوته أو قربها، وهي تتمايل بجسدها الطويل المياس. وهل للحنين مذاق؟

نعم، عندما يأتي ليدكّرنا بالأحبة. لم يحظّ عاهد الغريب منذ سفره إلى الإمارات بسفرة فلسطينية أصيلة تكوّنت من طبق المسخنّ بسماقه الحامض، المكملّ بقطع الدجاج المحمّر والمكسرات، إلى جانب طبق شوربة الفريكة، والسلطات، والمقبلات. تذكر عائلته في مخيم الشاطئ في غزة، واشتاق إلى طعام والدته وأحس بمدى غربته في أدق تفاصيل الحياة التي تحوّلت إلى مذاق يغصّ به.

اطمأن لاختياره عندما لمح سميرة الزاجي تلتقط الباقة وابتسامة

رقيقة رُسمت على شفتيها. حلّت عن الأزهار السبع العقدة المربوطة على شكل نجمة فضية، غمرتها في الماء المضاف إليه السكر داخل إناء زجاجي شفاف. سحب من غليونه نفساً عميقاً ثم نفثه إلى الأعلى، لحظتها رأى لمحات خاطفة من ملامح وجه سميرة الزاجي من خلف الدخان المنطلق من صدره نحو الهواء، ذلك الوجه الذي لن يفارقه طوال سنوات عمره. وسيبقى يسترجع ذكرى تلك الأمسية في نفسه ويتلمّظ أنوثة سميرة الزاجي.

امتلكت سميرة الزاجي عينين خضراوين بلون الزيتون ووجهاً ناعماً، ببشرة فاتحة، وخذاً أسيلاً يقترب منه ويتعد قرطان صغيران، لها أنف صغير الأرنبة، ورقبة طويلة ورفيعة ينسدل عليها شعرها البني ليصل إلى رأس كتفيها الدقيقتين.

بينما أخذت تسكب سميرة الزاجي شراب المته في الأكواب الزجاجية الصغيرة أمامهم، نظرت إلى زوجها كأنهما عاشقان جديدان. وضع أسعد الشرع أسطوانة (هذه ليلتي) للسيدة أم كلثوم. دندن الزوجان مع الألحان وتبعهم عاهد الغريب مندمجاً مع الأجواء الطربية التي حرّرتهم من خجله الاجتماعي وذكّرتهم بأيام دراسته في مصر.

«هذه ليلتي وحلم حياتي ... بين ماضٍ من الزمان وآتٍ

الهُوى أنت كله والأمني ... فاملاً الكأس بالغرام وهاتٍ»

* * *

توالت الأيام وليالي السمر. كان الناس في الغربة يقتربون من بعضهم؛ ليؤنسوا قلوبهم، ويتبادلون الحديث عن ذكرياتهم وحنينهم وأشواقهم لأسرهم البعيدة؛ لتطمئن أرواحهم.

في أحد المساءات، ذهب عاهد الغريب مع أسعد الشرع وزوجته لحضور حفل سيدة الغناء العربي أم كلثوم المقام في مسرح وزارة

الدفاع في إمارة أبو ظبي في نهاية شهر نوفمبر من العام ١٩٧١، بمناسبة احتفالات الإمارة بعيد جلوس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الخامس حاكمًا لإمارة أبو ظبي. ففي هذه المناسبة الوطنية تُقام العروض العسكرية، والرقصات الشعبية، وأهازيج الشعر النبطي وسباقات الهجن.

بدأت السيدة أم كلثوم الحفل بغناء قصيدة (أغداً ألك). جلس الزوجان متشابكي اليدين. يهمس أسعد الشرع في أذن سميرة الزاجي بين الحين والآخر ويتسلمان. كان عاهد الغريب يغبطهما على حبهما وعلى العلاقة الجميلة التي تجمعهما رغم اختلاف طباعهما، إلا أنهما عرفا كيف يتواطآن ويتقبّل كل منهما مزاج الآخر عن طيب خاطر.

أهدى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان السيدة أم كلثوم عقدًا ثمينًا من اللؤلؤ الطبيعي تكريمًا لها، لبسته لتتزين به في سهرة الحفل الثاني، حيث شدت بأعذب القصائد. بعدها بأيام شهدت السيدة أم كلثوم مع حكّام الإمارات السبع قيام الاتحاد، وُرفِع علم دولة الإمارات العربية المتحدة في الثاني من ديسمبر عام ١٩٧١.

* * *

كان اللون الأسود الذي ارتدته سميرة الزاجي في أول مساء جمعها مع عاهد الغريب سيكون حلقة الوصل بينهما؛ فقد لُزمت هذا اللون لأربعين يومًا حدادًا على زوجها الذي وافته المنية في استديو التلفزيون خلال تصوير أحد البرامج؛ بسبب جلطة قلبية. لم ينجب أسعد الشرع من زوجته وبقيت وحيدة تتجرّع من الألم كؤوس فراق عديل الروح.

لكن عاهد الغريب لم يتركها تخوض كل الآلام وحدها في الغربة؛ فقد قام بجميع إجراءات الدفن واستقبال المعزّين. وراح يطمئن عليها باستمرار عبر الهاتف الأرضي لمنزلها.

كان يشناق كثيراً إلى وجهها وابتسامتها، وينتظر بث برنامجها الذي عادت لتقدمه في التلفزيون بعد انتهاء فترة الحداد. كان يتردد في أن يطلب لقاءها حتى لا يسبب لها الإحراج.

راودته مشاعر غريبة نحو سميرة الزاجي. يخجل من نفسه كلما فكّر فيها ويكتم إحساسه. ظلّت علاقتهما ما بين صوتها الذي يشي بالحزن العميق على الهاتف أو صورتها التي حرص على مشاهدتها في البرنامج التلفزيوني الذي تقدّمه. يحتفظان بعدة خطوات واسعة تفصل بينهما في علاقة بدت رسمية. لم يتعدّ عاهد الغريب حدوده معها؛ حفاظاً على أحرانها التي لم تندمل بعد، وبقياً على هذه الحال عدة أشهر.

لكن الصدفة رتبت لهم موعداً قديماً. في إحدى الليالي اختنق عاهد الغريب من كثرة التفكير فيها؛ خرج كي يقتل توّثره بالمشي على كورنيش البحر. فجأة وقف مذهولاً عندما وجدها أمامه، تجلس على أحد المقاعد قبالة البحر وحيدة -كعادتها القديمة- مع دفترها الصغير تُدوّن فيه كلمات اختلطت بدموعها.

تردّد وارتبكت خطواته، لكن قلبه جرّه نحوها، وتجراً على الحديث معها وجهاً لوجه لأول مرة بعد وفاة زوجها. تفاجأت من وجوده لحظة ألقي عليها التحية بهدوء. أخفى يديه المتعرقّتين من التوتر داخل سترة بدلته الرياضية، ويريق يتوهج من عينيه الشهلاوتين أطبق عليهما جفنيه كي لا تفضحان صدره الذي يمور بالعاطفة، ولا تسمع دقات قلبه من بريقتهما.

مسحت دموعها بسرعة وعدّلت من جلستها لتفسح له المكان. جلست جثة الصمت بينهما، وظلاً يحدقان في البحر وأمواجه الخافقة بالتتابع على صخور كاسر الأمواج أمامهما. لا يعرفان ماذا يقولان ولا من أين يبدأ حديثهما.

ضربت موجة قوية الصخور فأيقظت عاهد الغريب من شروده، ونطق لسانه بسرعة قائلاً: «سميرة، أعرف أن الوقت غير مناسب لمثل هذا الكلام، وأعرف مدى الحب الذي جمعك مع المرحوم أسعد الشرع لسنين».

بلع ريقه بصعوبة واستطرد بصوت منخفض: «سميرة، أريد أن أكمل باقي حياتي معك. لا تعطيني الآن جواباً لطبي، فكّري بهدوء ولا تتعجّلي». خرجت الكلمات منه خائفة من ردّة فعلها، تنفس زافراً عبثاً كان يثقل روحه ويريد البوح به بأي طريقة.

جحظت عينا سميرة الزاجي وسكتت مصدومة، قالت في نفسها: «يا لجرأته في طلبه. هل يعتقد بأني سأوافق؟». امتعضت من حديثه وأحكمت إغلاق سترتها ثم دفنت رأسها داخلها وتوقعت أكثر مع نفسها. علا صوت الأمواج المتكسّرة على الكاسر الحجري ليعلن انتهاء صدفه لقاتهما.

غادر عاهد الغريب المكان وعاد إلى منزله وقلبه ينبض بقوة من الموقف الجريء الذي أقدم عليه. غامر بعلاقته معها، لكن كان لا بد من أخذ الخطوة الأولى، رغم أنه لا يعرف بعد حقيقة مشاعرها نحوه.

كان قلبك يا عاهد الغريب كقطعة من نار. لم تتمكن من كتم إحساسك وقرّرت البوح لأنك ما عدت تطيق الصمت أكثر. لكن، هل فكّرت بقرار سميرة الزاجي؟ هل ستحمّل خذلان رجولتك إن هي رفضت طلبك بالزواج منها؟

عصفت الهواجس في رأسه وهو في طريق العودة إلى منزله، يفكّر بعلاقتها مع المرحوم زوجها الذي عشقته حد الجنون، ولكنه يريدتها وسيبقى ينتظر جوابها ولو لآخر يوم في حياته.

عاد مراهقاً يطلب رقم هاتف منزلها لسمع صوتها عبر السماعه

ثمَّ يغلقه. وجد نفسه سخيِّقاً في تصرفاته الصبيانية. ظل الصمت سيد الموقف بينهما لأشهر كثيرة. انشغل بعمله وركز فيه أكثر كي يتناسى كل المشاعر المتضاربة التي تدقُّ رأسه، ودرّب نفسه على تقبُّل قرارها مهما كان.

خلال تلك المدَّة انتهت أعمال البعثة الدنماركية في المواقع الأثرية في الإمارات، والتحق عاهد الغريب بالعمل مع البعثة العراقية التي جاءت لاستكمال عمليات البحث والتنقيب على مرحلتين؛ الأولى: صيانة باقي المدافن في منطقة الهيلي في إمارة العين، التي تعود إلى الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، والثانية: مسح الآثار في منطقتي جبل حفيت في إمارة العين ومنطقة لبوا في أقصى الجنوب الإماراتي.

عَمَلٌ بعدها مع مجموعة علماء آثار فرنسيين اكتشفوا في إمارة أم القيوين الساحلية في شمال الإمارات أقدم لؤلؤة طبيعية أثرية غير مثقوبة في تاريخ البشرية، موضوعة فوق شفة جمجمة الميت العليا. يرجع تاريخها إلى ٧٥٠٠ سنة في موقع يعود إلى العصر الحجري الحديث.

زار عاهد الغريب شقيقه طه في إمارة دبي ليطمئن عليه. ذهب إلى خور دبي حيث ترسو السفن العربية التجارية من طراز البوم، والقوارب الخشبية التقليدية الصغيرة التي تنقل الناس بين شقّي مدينة دبي ديرة وبر دبي. ركب أحد القوارب وأبحرا في رحلة قصيرة في الخور.

جلس طه محنيّ الظهر، شابكاً يديه فوق صدره، كانت له لحية سوداء وقامة قصيرة ممثلة. تبادلوا حديثاً مقتضباً، فبالكاد استطاع عاهد الغريب أن يستنطق شقيقه طه الذي كان يكرّز على أسنانه وهو يتكلّم. أحسَّ قلبك يا عاهد الغريب بأن شقيقك يخفي أمراً لم تستطع التنبؤ به، فقد ظلَّ طه شاردًا يتتبع بنظرات عينيه الصغيرتين النوارس المحلّقة حولهما فوق السفينة وفوق أمواج البحر، وترفرف عاليًا مع خفقات علم اتحاد دولة

الإمارات. كان بين الحين والآخر يسحب الهواء بشهيق عميق يملأ به صدره إلى جانب الأسرار الجهنمية.

أما عاهد الغريب فكانت نسמת البحر تذكّره بلقائه مع سميرة الزاجي التي لم تردّ على طلبه بعد. هو لا يعلم مدى الألم الذي تشعر به بسبب حيرتها في اتخاذ قرار مناسب بشأن عرض الزواج الذي فاجأها به. كيف ستطوي عمرها الماضي مع زوجها السابق المرحوم أسعد الشرع، وتبدأ عمراً جديداً مع رجل آخر؟

نزل الشقيقان من القارب وتجوّلا في سوق التوابل، وسوق الأقمشة، وسوق الذهب. في نهاية رحلتها، أخبر طه شقيقه عزمه على السفر إلى طهران بعد عدة أيام في مهمة رسمية للشركة التي يعمل فيها.

قبل أن يعود عاهد الغريب إلى مدينة أبو ظبي اشترى حقيبة سفر من محلات جاشنمال استعداداً لرحلة جديدة إلى فرنسا لاستكمال أعماله مع بعثة الآثار الفرنسية. أمضى وقته هنالك ما بين العمل والتجوّل وحيداً في شوارع العاصمة باريس. استوقفته إحدى الواجهات التجارية الأنيقة لمحلات ميكيموتو الشهيرة المتخصّصة ببيع اللؤلؤ المزروع.

تأمل طويلاً القطع المعروضة من الخواتم، والعقود، والأساور. أخذ يتخيّل كيف ستبدو كل قطعة إذا لبستها سميرة الزاجي. لم يتردّد ودخل المتجر عازماً على شراء هدية لها. هل كنت تشعر يا عاهد الغريب بأنها لن ترفض طلبك؟

ما إن وصل مدينة أبو ظبي عائداً من باريس حتى وجد مفاجأة تنتظره في منزله. الضوء الأخضر في آلة تسجيل المكالمات يشير بتذبذب إضاءته إلى وجود رسالة مسجّلة على جهاز الهاتف. لم يصدّق وهو يسمع صوت سميرة الزاجي عبر الآلة؛ فقد مرّت مدة طويلة من يوم عرض عليها الزواج، قالت: «مرحبا عاهد. رجاءً عندما تسمع التسجيل عاود الاتصال بي». تنهّد وهو يحدث نفسه: «يا ترى ما قرارك يا سميرة؟».

كان اللقاء المرتقب في مطعم السندباد البحري (أبو طافش) المطل على الكورنيش. وصل عاهد الغريب مبكراً، يضع علبة من المخمل الأحمر في جيب بدلته القريب من جهة القلب، يتحسس مكانها قرب نبضه، قرّر أن يقدم هديته لها بعد أن ينظر في عينيها ويستشعر قرارها.

تأخرت سميرة الزاجي عن الموعد. قلق عاهد الغريب وأخذت خيالاته ترسم صوراً كثيفة؛ فشعر بتوتر جعله يعرق كثيراً. وبينما كان غارقاً في هواجسه، إذ بها تدخل المطعم، تمشي على استحياء بمظهر برجوازي أطلق العنان لمشاعره.

ارتدت ثوباً أخضر طويلاً من الحرير ينسجم مع لون عينيها الزيتوني. ثبتت دبوساً ذهبياً كبيراً على صدرها. وضعت القليل من مساحيق التجميل، ورفعت خصلات شعرها الأمامية ليظهر شكل القلب في منطقة التقاء الشعر بالجبين. تحمل حقيبة يد صغيرة وترمي على كتفيها الدقيقين شالاً ناعماً.

طلّتها الجميلة أعطته الضوء الأخضر كي لا يتكلّمها؛ فلا معنى لكل الجمل والحروف في حضرة الملاك الزمردى الذي يمشي على الأرض. بدت كأميرة خرجت للتوّ من إحدى الأساطير القديمة.

بادر وأخرج العلبة المخملية وفتحها بهدوء أمامها ليقدّم لها خاتماً تتوسطه حبة لؤلؤ عاجية اللون تحيط بها ماسات صغيرة. اشترى لها الخاتم من فرع متجر ميكيموتو في باريس. قال هامساً لأول مرة ولأول فتاة في حياته: «أحبك». لمعت عيناها ببريق القبول وخفضتهما، أما يده المعلّقة في الهواء فقد ارتجفت وهي تحمل الخاتم اللؤلؤي نحوها، ينتظر أن تمد يدها ليضعه في إصبعها الرقيق.

مرت ثوانٍ بينهما وكأنها ساعات. هل ستخذلك سميرة الزاجي وتبقي يديها أسفل الطاولة؟

طلبت منه قبل القيام بأي خطوة رسمية أن يبقيا مدة ليتعارفا على بعضهما ويكونا متأكدين من خطوتهما المقبلة. نظرت نحوه مبتسمة ثم رفعت يدها نحوه. قفز قلب عاهد الغريب من الفرح وهو يضع الخاتم في إصبع يدها اليمنى ثم قبلها على ظهر يدها قبلة ناعمة.

بدأت مرحلة جديدة في حياتهما معاً. مرت عدة أشهر وهما ما بين لقاء وحديث، أزهار وهدايا، موسيقى وبحر، لتكتمل حلقة حبهما للأبد. سافر عاهد الغريب إلى مخيم اليرموك في سورية لخطبتها من أهلها، وعقدا قرانهما في حفل بسيط على أن يكون حفل الزفاف في مخيم الشاطئ في غزة لعدم قدرة أسرته على السفر إلى هناك. كان عاهد الغريب يعد الأيام حتى يأتي الحدث الموعود.

هل عرفت يا ميكيموتو كويتشي مقدار الفرح الذي زرعه لؤلؤاتك في قلب الجميلة وفارسها؟ هل تخيلت أن تتوالى في أقاصي الكرة الأرضية قصص الحب التي ستجمع قلوبها لؤلؤاتك الأسطورية وتزرع العشق في أحضانها إلى الأبد؟ لقد بذرت الحب الخالد بلؤلؤاتك المزروعة بالأمل.

(٤)

قطاع غزة (صيف عام ١٩٧٥ م)

شاطئ بحر غزة

مخيم الشاطئ للاجئين الفلسطينيين

حصانان أبيضان يصهلان بالبهجة. يحملان العروسين ويتخيلان بمشيتها على رمال شاطئ غزة على وقع النغم الذي ينشده شباب الخيالة بأصواتهم التي حرّكت الموج عالياً. جعلت النوارس تدنو بتحليقها وتشاركهم الاحتفال.

من بعيد كانت البوارج البحرية الإسرائيلية تجوب بحر غزة أمامهم، لكن موكب الفرح كان أقوى من أي شيء آخر، ووسط البحر رمى الصيادون شباكهم من قواربهم الخشبية؛ ليصطادوا السمك، وعلى رمال الشاطئ التفّ شباب المخيم ورجاله وصبيانهم حول العروسين.

قبل يوم الزفاف أقامت عائلة عاهد الغريب حفلاً عائلياً. شارك فيه رجال المخيم ونسوته. وضعت والدته الحناء والشموع في صينية نحاسية ودارت بها بين جموع المحتفلين ترفعها بين الحين والآخر على رأسها سعيدة بزفاف ابنها الذي تخضبت كفاه بالحناء على وقع غناء الجميع، ينشدون بصوت واحد: «دير الميه ع السريس مبارك عرسك يا عريس... دير الميه ع الليمون مبارك عرسك يا مزبون».

في يوم الزفاف الميمون ارتدت سميرة الزاجي فستانها الأبيض الذي تهدّلت أطرافه الطويلة خلف الحصان الذي تمتطيه. أمسكت سرج حصانها بيدها التي تتزيّن بخاتم ميكيموتو اللؤلؤي، وباليد الأخرى أمسكت يد عاهد الغريب الذي ارتدى الثوب الفلسطيني المخطط بالأبيض والأسود رابطاً طرفه للأعلى فوق قمبازه وهو يركب حصانه بجانبها. طافوا شاطئ غزة مع زفة الخيالة. كان شقيقه طه يقود الحصانين، ويدبك برجليه سعيداً إلى أن وصلوا إلى منزل أهله حيث الخالات والعمات والأصدقاء بانتظارهم.

عندما لاحت الخيول من بعيد، واقترب موكب العروسين والخيالة، بدأت النسوة بإطلاق الزغاريد، ونثرت الفتيات الصغيرات الورد والياسمين على الجميع. أنزل عاهد الغريب عروسه من على الحصان؛ لترقص النساء معها. أحضرت والدته قطعة عجين حتى تقوم سميرة الزاجي بثبيتها فوق عرقة باب المنزل الذي سيسكنان فيه خلال مدة إقامتهما في غزة.

* * *

في الحجرة المنيرة بنبض الهوى. تأمل عاهد الغريب وجه عروسه المستتر خلف طرحتها الشفافة. اقترب منها بهدوء، مسك يدها وقبّل أصابعها وعندما وصل إلى خاتم اللؤلؤ، نقله إلى يدها اليسرى. أزال الطرحة عن وجهها المتورّد خجلاً، ورفع ذقنها نحوه؛ ليغيبها في عناق ليل الحب.

* * *

ظلت ذكرى زواجهما خالدة في قلب سميرة الزاجي. وفي كل مساء ستحكي لابنتها يارا الغريب قبل النوم قصتها مدعية أنها قصة الفارس والأميرة.

(٥)

دولة الإمارات العربية المتحدة (١٩٧٦م - ١٩٩٠م)

مدينة أبو ظبي

إسكان شركة بترول أبو ظبي الوطنية (أدنوك).

قضى العروسان شهر العسل في مدينة القاهرة. زارا الأهرامات والأقصر. قضيا أجمل الأمسيات في السفن التي تمخر نهر النيل. مرت الأيام الجميلة وعادا إلى عشّهما الصغير في شارع الخالدية في مدينة أبو ظبي. التحقت سميرة الزاجي بعملها في التلفزيون، وبحث عاهد الغريب كثيراً عن عمل جديد بعد أن أنهت البعثات الدولية أعمالها بالبحث والتنقيب عن الآثار في دولة الإمارات.

حبلت سميرة الزاجي بثمره حينها الأولى بعد مضيّ شهر على زواجهما السعيد. جاءت طفلتها الصغيرة يارا إلى عالمهما في نهاية العام ١٩٧٦. أنارت حياتهما بالبهجة والسرور، ورُزق والدهما مع قدومها للحياة بعمل جديد في شركة بترول أبو ظبي الوطنية (أدنوك)، التي أسّسها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في عام ١٩٧١، حيث أدّت الشركة دوراً أساسياً في إدارة النفط والغاز وإنتاجهما في إمارة أبو ظبي.

عملَ عاهد الغريب في المكاتب الرئيسة المطلّة على الكورنيش مدّة من الزمن، وفي بداية العام ١٩٩٠ انتقل للعمل في مصفاة أم النار التابعة

للشركة؛ لتكرير النفط في الحقل الذي اكتشف في جزيرة أم النار. كان حقل النفط قريباً من الموقع الأثري الذي قضى فيه مدّة عمله الأولى مع البعثات الأثرية. انتقل مع أسرته إلى المجمع السكني الخاص بالموظفين العاملين في المصفاة.

يوجد في المجمع السكني تسع عمارات سكنية مكوّنة من خمسة طوابق، متماثلة في تصميمها الذي يشبه الصقر الرابض في قلب الصحراء، تحيط بها الرمال من كل النواحي. ويوجد في المجمع بقلتان وعبادة صغيرة، وملعب كبير، ومسجد. يتوسط المجمع دواران، وله بوابة خاصة. سكنت فيه عدة عائلات من جنسيات مختلفة: السودانية، والمصرية، والهندية، والأردنية، والفلسطينية، والأفغانية، واللبنانية، والصومالية، والتونسية وغيرها.

* * *

كيف يمكن للأيام أن تجمعنا مع أصدقاء الطفولة بالصدفة. لقد التقى الصديقان اللذان جمعهما شاطئ بحر غزة قديماً عندما كانا يلعبان بالكرة على رماله. والآن يجمعهما نفط الخليج العربي مرة أخرى في مصفاة البترول.

دخل عاهد الغريب إلى البقّالة الموجودة في الجهة الخلفية لإحدى العمارات في آخر المجمع. اصطدم بكتف رجل كان يهّم بالخروج. توقف الرجلان للحظة يحدّقان ببعضهما.

نظر عاهد الغريب نحو عيني بُرهان النورس العسليتين الجاحظتين يشوبهما الاحمرار ويعلوهما حاجبان غليظان، فقد تغيّر وأصبح أسمن والكدر على وجهه ذي البشّرة الشقراء، كان قصير القامة، شعره برتقالياً. فتح فمه الذي يعلوه شارب غليظ وأنف كبير مندهشاً وهو ينظر إلى الرجل الذي يقف أمامه.

تردّد عاهد الغريب في نطق اسم صديقه، لكنه تأكّد عندما رأى أسفل

عينه اليسرى ندبة أحدثتها شظية صغيرة أصابته جراء إطلاق القوات الدولية العيارات النارية، وقنابل الغاز المسيل للدموع حين كانا بين جموع المتظاهرين والمحتفلين؛ بمناسبة جلاء القوات الإسرائيلية عن غزة في السابع من مارس عام ١٩٥٧، استمر الاحتفال لسبعة أيام متتالية، طالبوا خلالها بعدم وجود قوات دولية في غزة، وأنزلوا علم الأمم المتحدة، ورفعوا العلم المصري.

تعانق الصديقان بحرارة، وها هو قدر النفط ينقلهما من خليج غزة إلى الخليج العربي ويجمعهما من جديد. افترقا عندما رحل بُرهان النورس مع أشقائه إلى الكويت للبحث عن لقمة العيش. لم يكن الخروج من غزة بالأمر السهل، وبصعوبة استطاعوا السفر وتدبير أمورهم، كونهم يحملون وثائق سفر مصرية.

هاجرت أسرة بُرهان النورس بعد (عملية داني) من قرية طيرة دندن شمال غربي مدينة اللد مع جموع الفارين وقطعان الأغنام وزوابع الغبار بعد حرب ١٩٤٨م. فرّوا من الموت وطلقات الرصاص التي كانت تحلّق فوق رؤوسهم من رشاشات الاحتلال عبر الطرق البرية، ووصلوا إلى مدينة غزة واستقرّوا في مخيم الشاطئ. عاش يتيمًا بعد استشهاد والده وهو يتصدى للقوات الإسرائيلية.

بعد أن وقّعت مصر وإسرائيل هدنة تقضي باحتفاظ مصر بمدينة غزة، أصبحت مأوى لكثير من اللاجئين الفلسطينيين الذي خرجوا من مدنهم قسرًا، وبقيت تحت الحكم المصري حتى سقوطها في قبضة الاحتلال الإسرائيلي بعد حرب العام ١٩٦٧.

تحمل بُرهان النورس مع إخوته مسؤولية البيت. ترك المدرسة وعمل ببيع المرطبات على شاطئ غزة. كان لا بد من تدبير مصاريف أسرته الكبيرة. في تلك المُدّة بدأت الحياة تزدهر في الكويت بعد اكتشاف النفط فيها، وتنامت فرص العمل بشكل كبير.

عمل بُرهان النورس في مصفاة الشعبية في الكويت (أم الخير). كانت أول مصفاة تبنيتها شركة بترول وطنية بالكامل، وأول مصفاة في العالم اعتمدت على الهيدروجين في عملية التكرير. افتتحت العام ١٩٦٨ رسمياً، وبعد شهر واحد تقريباً صُدّرت أول شحنة نפט إلى أسواق اليابان. تزوّج بُرهان النورس من فريال العباسي؛ ابنة إحدى العائلات الفلسطينية المستقرة في الكويت، والقادمة من مخيم الوحدات للاجئين الفلسطينيين في الأردن. رزق منها بتوأم سمّاهما أريج وربيع في العام نفسه الذي اندلعت فيه الحرب العربية - الإسرائيلية الرابعة في السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣؛ حيث قطع الشيخ زايد الإمدادات النفطية عن أمريكا والدول الغربية المشاركة في الحرب، مطلقاً مقولته الشهيرة: «ليس النفط العربي أغلى من الدم العربي».

في العام ١٩٧٥ أمّمت شركة بترول الكويت ومصافي النفط التابعة لها، وأصبحت تابعة لمؤسسة البترول الكويتية. في العام ١٩٧٦ افتتحت رسمياً في دولة الإمارات مصفاة أم النار لتكرير النفط، وكان لا بد من استقطاب أصحاب الخبرة والموظفين في شركات النفط من الدول المجاورة؛ فأبرم رجل الأعمال الأردني من أصل فلسطيني ح. زلوم صفقة كبيرة لنقل بعض العاملين في مصافي البترول من دولة الكويت إلى دولة الإمارات للعمل في شركات النفط حديثة المنشأ.

كان بُرهان النورس ضمن الموظفين المنتقلين. سافر مع عائلته إلى إمارة أبو ظبي للعمل في مصفاة أم النار التابعة لشركة بترول أبو ظبي الوطنية (أدنوك). عاشوا في المجمع السكني التابع للمصفاة في أوائل الثمانينيات. كانت المباني في ذلك الوقت تحيط بها الرمال، ثم عُبّدت الطريق داخل المجمع وزرعت ببعض الأشجار.

سعت العائلات الفلسطينية إلى السلام في رحيلها وبحثها عن لقمة العيش بين الأوطان العربية. لكن، هل سيدوم الأمان؟ أم إن طبول الحرب ستعود وتدقّ أبوابهم ولكن بشكل لم يتوقعه أحد؟

النَّارُ الثَّانِيَّةُ

(٦)

دولة الإمارات العربية المتحدة (شهر يونيو ١٩٩٠ م)

جزيرة أم النار

إسكان موظفي مصفاة أم النار لتكرير النفط (أدنوك).

في وقت الظهر راقبت يارا الغريب المشهد المأساوي بحذر، حتى لا يراها أحد من عصابة الصبيان. وقفت على شرفة حجرتها المطلة على الساحة الخلفية للعمارة التي تسكنها مع والديها، داخل المجمع السكني التابع لموظفي مصفاة أم النار لتكرير النفط.

«فكوا وثاقي يا حفنة القذارة. سألعنكم شر لعنة. أعدكم بذلك»، صرخ السومري في وجه الصبية الذي استمروا بالضحك عليه، والاستهزاء به. بعد أن أوثقوا ربط يديه وساقيه جيداً إلى شجرة اللوز الهندي، عصبوا عينيه بالبوشيه صفراء اللون. كان يضعها على رأسه، ثم وضع الصبيان الثلاثة السحالي داخل ملابسه. بقبضة قوية، حشروا فمه بحبة لوز كبيرة جداً، يتراقص منها الدود الأبيض السمين. لحظتها، جحظت عيناه وسالت نقطة دم من منتصف شفته المشرومة في فمه المفسوخ.

فجأة، صرخ أحد الصبية الشياطين، مشيراً نحو فتاة تقف على شرفة: «انظروا هناك، لقد اكتشف أحدهم أمرنا». فزعت يارا الغريب عندما وجدتهم يحرقون بها ويشيرون نحوها. خفضت رأسها بسرعة، وجلست

على الأرض، وبقيت تسترق نظرات خاطفة من بين القواطع الخشبية، على سور شرفة غرفتها.

في تلك الأثناء عادت والدتها المذيعه سميرة الزاجي من عملها في تلفزيون أبو ظبي. ركنت سيارتها الجاكوار السوداء في كراج العمارة، وتوجّهت إلى شقتها في الطابق الأول. دخلت عليها والدتها في الشرفة بهدوء، واضعة يدها على كتفها قائلة: «يارا. يارا حبيبي، ماذا تفعلين هنا، أناديك منذ أكثر من ربع ساعة وأنت لا تجيبين؟».

تفاجأت يارا الغريب من وجود والدتها بجانبها، وقامت عن الأرض مفزوعة. بدا على وجنتيها الخوف والخجل، ردّت على والدتها قائلة: «كنت انتظر أبي. لقد وعدني منذ أكثر من أسبوع أن نخرج في نزهة. هذا المكان الذي نسكنه بعيد عن المدينة. أمي دعينا نرحل من هنا، لقد سئمت».

ضمّت والدتها إلى صدرها لحظة شهقت لتبكي. حبست دموعها فارتعش صدرها كعصفور يريد أن ينتفض. سكن الحزن عينيها الخضراوين بلون الزيتون -ورثتهما عن والدتها- بسبب وحدتها وغياب والديها لفترات طويلة في العمل.

راقب الشياطين الثلاثة المشهد من دون إدراك نوع الحوار أو طبيعة العلاقة التي تجمعهما؛ نظرًا لإقامتهم الحديثة في المجمع السكني.

عندما استدارت يارا الغريب تموّجت الخصلات الذهبية لشعرها الأشقر الطويل مع أشعة الشمس الصحراوية. أطالت شعرها نزولاً عند رغبة والدها. يتدلّى عن كتفيها بنعومة على قوامها المتوسط وعودها الدقيق، ويصنع مع بشرتها القمحية مزيجًا فائقًا من الجمال البكر.

ست عيون كانت تحدّق من خلف الجذع المتقشّر لشجرة الكينا.

لكنّ عيينين فقط تسمّرتا وغابتا في الخيال بطريقة مختلفة. لم ترمش عينا ربيع النورس الكبيرة السوداءوان، تعلوهما حواجب رفيعة، وشعر أسود، ووجه نحيل ببشرة بيضاء. ظلت شفثاه المتفتختان منفرجتين قليلاً وهو ساهٍ، وعندما بلع ريقه تحرّكت تفاحة آدم في عنقه. وقف بقامته النحيلة والقصيرة في المنتصف بين صديقيه.

على يمينه وقف صديقه اللبناني نبيل الناقه بقامته المتوسّطة والممتلئة في الجزء السفلي من جذعه، له شعر كستنائي، وعينان بيّتان، على شماله اتكأ على الشجرة صديقه الأردني سليم الفانك الذي امتلك قواماً طويلاً ونحياً، عيناه سوداوان ذات رموش كثيفة.

بدأ نبيل كعادته يصفر بشفتيه مدندناً لحناً تشي نغماته بالسخرية، فقد رصد نظرات ربيع النورس على الفتاة في الشرفة، ولكزه سليم من كتفه الصغيرة ليوفضه من سهوه.

تميّز سليم بسرعته في الجري، ساعده في ذلك قوامه الرياضي. غمزه نبيل استعداداً لحمل ربيع النورس من ذراعيه، وبسرعة رفعاه عن الأرض بخفة لصغر جسده مقارنة مع أصدقائه من نفس عمره، رغم أن ثلاثتهم أنهما الصف الثاني الثانوي، من مدرسة ثانوية البطين في مدينة أبو ظبي. كان ربيع النورس مصاباً بمرض نقص النمو، وداوم مدّة طويلة على أخذ إبر هرمونات النمو، بمساعدة والدة سليم الممرضة في العيادة التابعة للمجمّع السكني.

لكن كانت استجابة جسمه للعلاج بطيئة جداً، وقد سبّب ذلك له شعوراً بالنقص؛ لرغبته في نيل إعجاب الفتيات، وأن تصبح له حبيبة يدندن لها أغاني الحب.

استدار نبيل ليرى السومريّ المقيّد إلى الشجرة. كانت ثمرة اللوز الهندي بديدها لا تزال عالقة في فمه. تلوى كثيراً وتألّم؛ لأن السحالي

كانت تبحث عن مخرج بين ملابسه. ضحك الصبيان الثلاثة ضحكة شريرة؛ فقد استطاعوا الأخذ بثأرهم منه بعد أن اعتدى عليهم. كانوا في رحلة لصيد السمك في المنطقة البحرية أسفل جسر المقطع. وجدوا خيمة ظنوا أنها مهجورة. دخلوها وشاهدوا فيها أدوات غريبة تبدو قديمة وأثرية، وعندما عاد السومريّ لخيمته رآهم يعثون في أغراضه؛ فجن جنونه.

شاهد السومريّ ربيع النورس يمسك بحصانه الأبيض الخشبي المسحور -الذي صنعه والده النوخذة خليفة الحبيب- ثمّ يلقيه على الأرض فرغاً لحظة أضاءت عينا الحصان بوميض أزرق. غضب السومريّ من تصرفهم، وضربهم بعضا كبيرة أدمت أجسادهم، بعدها بأيام أستدرجوه إلى المجمع السكني ليثأروا منه.

تغير السومريّ بعد وفاة والدته، أصبح يخشى الناس ولا يحب الاختلاط بهم، ففي إحدى الليالي هجم عليه شباب ملثمون وأخصوه، ومن يومها اعتزل الحياة وعاش وحيداً في خيمة قديمة أسفل جسر المقطع الذي يربط جزيرة أم النار مع جزيرة أبو ظبي.

* * *

كانت شعلة النار المنطلقة من برج تكرير النفط في المصفاة عالية وغير مطمئنة؛ فأبلغ معظم الرجال زوجاتهم بأنهم سيتأخرون في العمل لخمس ساعات إضافية، وحتى بداية الوردية التالية بسبب ظرف طارئ. انتهزت الفرصة والدة ربيع السيدة فريال العباسي واتصلت بالمذيعة سميرة الزاجي لتدعوها إلى احتساء الشاي مع الجارات، ورغم اعتذارها المتكرر عن تلبية الدعوة إلا أن جارتها أصرت على استضافتها.

السيدات في المجمع السكني يختلفن في نظرتهن إلى المذيعة

سميرة الزاجي. ترى في عيون بعضهن نظرة ممزوجة بالغيرة لأنها مذيعة مشهورة تظهر على شاشة التلفزيون، ولها برنامج أسبوعي مساء كل يوم جمعة تستضيف فيه الشخصيات الفنية والثقافية في دولة الإمارات. يسمح لها زوجها بالظهور في المجتمع من دون قيد أو حرج؛ لأنه يدعمها ويشجعها لتحقيق طموحها. بعض الجارات تعتبر احتراف المرأة لمهنة ذلّة اجتماعية؛ لأنها تُبدد أنوثتها وشبابها في العمل الذي يعتبره من وظيفة الرجال، أما بعضهنّ الآخر فمتناقضات؛ ينتقدنها ويشفقن عليها في ظاهر القول، ولكن إذا سنحت لهن الفرصة سيقمن بتقليدها، لأنهنّ يتمنّين أن يكنّ مثلها في قرارة أنفسهن.

وقفت سميرة الزاجي أمام المرأة تفكّر ماذا سترتدي؛ لأنها تريد أن تبدو بمظهر متواضع غير متكلّف لتكسب محبة الجارات، ولا تبدو متكبّرة عليهن بحكم وضعها الاجتماعي، ولا تثير حفيظة بعضهن التواقين لأن يصبحن مثلها: سيدة لها مهنة ومتحرّرة تقود السيارة، ولديها دخل مستقل، ويحترمها كل من في المجتمع للباقتها ودماثة أخلاقها. في النهاية ارتدت ملابس صيفية بسيطة وصففت شعرها بطريقة عفوية. عقصت سميرة الزاجي شعر ابنتها على شكل جديلة بعد أن ارتدت ملابسها، وقفت يارا تتأمل والدتها بعيون الحب وهي تضع مساحيق التجميل على جفنيها.

يارا ابنتها الوحيدة، قرّة عينها وأميرة قلب والدها عاهد الغريب، جاءت لتملأ عليهما الحياة. أغدقا عليها الدلال والاهتمام. كانت هادئة بطبعها وتطلب من والدها ما يحلو لها؛ فهي صغيرته التي لم تكمل بعد الخمسة عشر ربيعاً. يخشى عليها والدها كثيراً ويحيطها بالرعاية والحب. فهي لؤلؤته الغالية التي يخبئها داخل قلبه.

توجّهت المذيعة سميرة الزاجي وابنتها نحو العمارة المقابلة لهما، تمشيان الهوينا بأناقة واحتشام. اتصلت فريال العباسي ببعض الجارات

للاجتماع في منزلها في جلسة لطيفة، تفوح منها رائحة التّبولة والمعجنات والثرثرة والضحك.

حضرت والدة سليم، الممرضة مريم الفانك، إلى اجتماع السيدات بعد انتهاء دوامها في عيادة المجمع السكني. سيدة بألف رجل؛ تخرّجت في الفوج الأول من كلية الأميرة منى للتّمرّض. استطاعت أن تعمل وتربي أبناءها في الغربة. كان زوجها ضد خروجها للعمل، لكنها تأكّدت من قيمة عملها وتعليمها عندما توفّي زوجها، وسندتها الوظيفة لتكمل مشوار الحياة.

اشترت منزلاً في بلدتها في الحصن شمالي الأردن، وشحنت قطع أثاثه من الإمارات بواسطة الشاحنات عن طريق البر. حُلمها أن تزوّج ابنها البكر سليم، وتفرح بذريته. عقلها دائماً مشغول بالعمل وتدبير النقود؛ لتؤمن لأسرتها حياة كريمة وتعليمًا جيّدًا، وذلك على حساب صحتها واهتمامها بنفسها.

كعادتها، اتصلت والدة نبيل السيدة جمانة الوروار، واعتذرت عن الحضور. لم تستغرب فريال العباسي من تصرّفها؛ فوالدة نبيل لا تحبّ الاختلاط بالجارّات، وتتأفف منهن، رغم أنها عاشت في ظروف سيئة منعتها من إكمال تعليمها، وأجبرتها على العمل في عيادة طبيّة في ضواحي بيروت، لتعيل أسرتها الفقيرة التي تعيش في مخيم عين الحلوة للاجئين الفلسطينيين في جنوب لبنان، كانت الحياة في المخيم قاسية، فلم يكن السكن ملائمًا، وانتشرت الأمراض، والبطالة بين الشباب؛ بسبب قيود الحكومة اللبنانية عليهم بحجة تواجد فصائل مسلحة داخل المخيم.

سافرت إلى الإمارات بعد زواجها من الطبيب اللبناني عزيز الناقه هربًا من الحرب الأهلية في لبنان العام ١٩٧٥. عندما رأت الحياة بملاذاتها تتفتّح أمامها دفعة واحدة، شعرت بالفرق الكبير مقارنة مع حياتها السابقة التي تمقتها في المخيم؛ فانغمست في حياة الاستهلاك والمشتريات،

تعوّض نقصها وتنسى فقرها، ساعية إلى أن تكون الأفضل؛ لتحاكي سيدات بيروت اللواتي تمتّ أن تصبح مثلهن في المظهر، وأسلوب الحياة المعاصرة.

تغيّرت شخصيتها من فتاة المخيم البسيطة الفقيرة إلى سيدة المجتمع المتعالية المتكبّرة، تُعامل السيدات بحذر لتخفي عقْد نقصها، تقضي معظم وقتها ما بين المطاعم، وصالون جي جي للتجميل، والتجول في الأسواق مع ابنتها علياء.

عندما دق الباب توجّهت فريال العباسي نحوه. نظرت بسرعة في المرأة المثبّته على الجدار لتعاين قامتها المتوسطة وجسمها كمثري الشكل، صغيرة الثديين وممتلئة الأرداف، لها شعرٌ طويلٌ أسودٌ ناعمٌ، وبشرة قميحية، ووجه ممتلئ، أنفها رومانيّ حادّ، وعيناها سوداوان.

دخلت سميرة الزاجي وتبعتها ابنتها على استحياء وجلست على الكرسي المجاور لوالدتها. نادت فريال العباسي على ابنتها الصغيرة شهد لتصحّب يارا إلى غرفتها، ويلعبان معاً.

وقفت شهد تتأمّل يارا الغريب من رأسها حتى أخصص قدميها. خجلت الأخيرة من طريقة النظرات العميقة التي تفحصتها بها، توتّرت ورجعت للخلف خطوة بطريقة احترازية، لكن شهد ابتسمت أخيراً في وجهها وشدّتها من يدها، وكأنها تعرفها منذ زمن، وذهبنا إلى غرفة البنات.

شهد لم تكن تعجبها أي فتاة جديدة تسكن في المجمع السكني؛ فقد كانت شديدة العدوانية نحوهن، ومن حسن حظ يارا الغريب أنها رافت لها، وإلا لم يكن يوماً سعيداً بتأتاً، ولانتهى بشجار وشدّ شعر الضيفة.

عدّلت شهد من خصلات شعرها المجعّد الطويل، بلون ثمر الكاكا البرتقالية الناضجة، فردته على كتفيها علامة على قبولها للفتاة الجديدة، أما إذا ربطت شعرها ورفعت خصلاته للأعلى، فتلك علامة على أن الآتي

لا يسرّ. لا تخجل من أحد إن أعلنت الحرب عليه. تميّزت شهد بالتمش
البنّي على خديها ذي البشرة البيضاء، لها نفس عينيّ والدها الكبيرتين
والعسليتين، قوامها ممتلئ وقصير، وفمها كبير.

جلست الفتاتان مقابل بعضهما على طرفي السريرين المتجاورين،
سرير شهد وسرير شقيقتها الكبيرة أريج التي تمقت التجمّعات النسائية
وتهتم بالمطالعة، خاصّة وأن الإجازة السنوية للمدرسة بدأت منذ يومين.
بعد أن أنهت أريج درس حفظ القرآن في منزل جارتهم مس حنان،
ذهبت لوداع الشيماء، صديقتها المصرية التي تسكن في الشقة المقابلة
لهم؛ حيث ستسافر الأخيرة لقضاء إجازة الصيف في مدينة دمياط في
مصر، وفي العام الدراسي القادم ستتقدّمان إلى امتحانات شهادة الثانوية
العامّة.

مس حنان معلمة مادة التربية الإسلامية في مدرسة أريج، جاءت من
الأردن للعمل في سلك التعليم مع زوجها الذي يُكّني أبا جهاد. كانا
منتميين لجماعة الإخوان المسلمين. فقد استطاع مكتب الإخوان في
الأردن تدير وظائف لأعضائه في دول الخليج، بالتنسيق مع باقي مكاتب
الإخوان، بهدف نشر الدعوة الإسلامية.

ظلّت يارا الغريب ساكنة كحمامة ودیعة. صوت أنفاسها ناعم، وإذا
تحدّثت جاء كلامها أقرب إلى الهمس. بعد أن تعرّفتا إلى بعضهما، بدأت
الضحكات تنمو بينهما وتعلو أكثر، وتبدّد الخجل.

أخرجت شهد من أسفل طاولة المكتب، الذي تعلوه كتب المطالعة
الخاصّة بشقيقتها أريج، صندوق البرتقال الذي تضع فيه الدمى والألعاب.
تحتفظ بصناديق الفواكه البلاستيكية التي يشتريها والدها برهان النورس
من البرادات التي تأتي من الأردن، ولبنان، وسوريّة، محمّلة بالخضار
والفواكه؛ لتباع في سوق خاص عند ناصية ميناء زايد. تنتظر شهد العطلة

الصيفية بفارغ الصبر لأن والدتها لا تسمح لها باللعب إلا عندما ينتهي العام الدراسي لهوسها بالألعاب وعدم قدرتها على التركيز في المذاكرة.

* * *

دخل ربيع النورس إلى البيت وهو يلهث. الرمال عالقة على وجهه. ثيابه شبه ممزقة. التقط بسرعة من طاولة المطبخ بعض قطع من معجنات السبانخ، وذهب إلى غرفة البنات حيث كانت أغاني عمرو دياب تنبعث منها. نظر خلسة من باب الغرفة. لمح شهد وفتاة أول مرة تزور شقيقته، عندما شاهداها تجلس على الأرض وفستانها يكشف عن ساقين رشيقتين، غصّ حلقه باللحمة.

كانتا مستغرقتين في تبادل الحديث واللعب. وقبل أن تنتبها إلى وجوده خرج مسرعاً نحو غرفته. ظل ربيع النورس يفكر في الفتاة التي لمحتهم من شرفة منزلها، وخشي أن تشي لأحد عن المشهد الذي رآته وهم يضربون السومري في الساحة الخلفية ويربطوه إلى الشجرة.

كانت والدة ربيع وشقيقته يسمحن له بالاختلاط مع النساء واللعب مع صديقاتهن، فلم يكن أحد يخجل منه. قتله هذا الشعور لأن الجميع لا يراه شاباً ناضجاً، علماً أنه يجد في داخله رجولة تنبض في عروقه وتتذوق معنى الأنوثة. أفقده مرض نقص الهرمونات جزءاً من ثقته بنفسه وأصبح شديد الحساسية في التعامل مع البنات. فلم يكن طوله ينمو بالمعدل الطبيعي مقارنة مع باقي أصدقائه من العمر نفسه. غرفة البنات هي ملاذه من الوحدة؛ فلا أشقاء ذكور لديه، وهو الشقيق التوأم لأريج.

بحكم عمل والده بنظام الورديات في مصفاة أم النار، وقلة تواجده في البيت؛ لم يختلط ربيع النورس كثيراً بمجالس الرجال. وكان يكره والده الذي يوبّخه دائماً كلما شاهده يجري مع أصدقائه؛ كي لا يتعب بسبب مرضه.

ما بين غرفة البنات وبرامج التلفزيون، ستمضي أيام العطلة الصيفية. وفي العام الدراسي القادم سيجتاز امتحانات الثانوية العامة.

عندما همّت السيدات بالمغادرة، أصرت شهد أن تبقى الضيفة حتى المساء. الغريب أنه ليس من عادة شهد التعلّق بفتاة، فهي شديدة الغيرة من بنات جنسها. كانت يارا مسالمة ومعتّدة بنفسها، ولم تَبْدُ مكترثة بألعاب شهد.

* * *

في المساء اتّصلت والدة يارا تطلب أن تعود ابنتها إلى المنزل؛ لأن والدها يسأل عنها. في أثناء ذلك مر ربيع النورس بالقرب من غرفة البنات، وتناهى إلى سمعه صوت الضيفة. فتحت فمها الصغير لتتفوه بأشياء كبيرة قائلة: «اليوم شاهدت عصابة مكوّنة من ثلاثة شباب يضربون رجلاً...». قطع ربيع النورس الحوار بينهم حتى لا تكمل كلامها، وطلب من والدته أن يوصل الضيفة مع شهد إلى منزلها؛ لأن الوقت تأخر. لم تكن تعلم يارا الغريب أن شقيق شهد كان واحداً من العصابة.

لم يصدّق ربيع النورس أن تكون الفتاة التي شاهدوها تراقبهم من شرفتها وهم يضربون السومريّ هي نفسها الفتاة التي تقف الآن أمامه. كيف لم يتعرّف إليها؟ لقد كانت هناك مسافة كبيرة بين الشرفة والساحة الخلفية حالت دون أن يميّز ملامحها.

عندما أردوا الخروج، دخلت شقيقته أريج إلى البيت عائدة من زيارتها لصديقتها الشيماء، وبين يديها كتب ومراجع. كانت أريج متوسّطة القامة شعرها أسود ناعم، بشرتها قمحيّة اللون، تضع نظارة طبية كبيرة، وترتدي السراويل الواسعة والقمصان الطويلة لتخفي رديها السمينين.

انطلق الثلاثة. طوال الطريق ظلّت شهد تثرثر بلا توقف حتى وصلوا إلى منزل يارا الغريب. صعدوا إلى شقتها التي تقع في الطابق الأول.

دقّت يارا الغريب الجرس. فتح والدها الباب وهو يندندن: «يارا إلهي جدًا يلهها شقر.. فيهن بيتمرجح عمرا». ما كاد يفتح والدها الباب وإذا بها ترمي نفسها في أحضانه كأنها طفلة. حملها بين ذراعيه عاليًا أمام دهشة ربيع النورس وشهد التي شعرت بالغيرة وفغرت فاهًا. شكرهما والدها عاهد الغريب، وعادا أدراجهما إلى المنزل صامتَيْن. عندما نزلا في المصعد، تذكّر ربيع النورس السومريّ، وتساءل في نفسه: «يا ترى ماذا حلّ به؟».

بعد أن قام بإيصال شهد إلى المنزل عاد إلى الساحة الخلفية. الليل والهدوء جعلا الخوف يتسرّب إلى قلبه الصغير. تخطى بحذر أشجار الكينا. لم يستطع أن يرى شيئًا بسبب الظلام الدامس. لم يكن أحدٌ يعلم سر السومريّ العجيب، فقد منحه حصانه الأبيض الخشبي المسحور، قدرات خفية ستتجلّى في لعناته عليهم بسبب الأذى الذي ألحقه به. بلع ريقه بصعوبة وظل متسمّرًا في مكانه، لكن صوتًا أنثويًا جاء من نفس الشرفة يحذّره كي يتعد من المكان، فعاد إلى منزله يهرول.



في طريق عودته، رأى والده بُرهان النورس عائدًا من عمله من الوردية الليلية. احتبأ خلف إحدى السيارات المركونة في الموقف؛ حتى لا يراه ويطلب منه العودة إلى البيت.

صعد ربيع النورس إلى الطابق الثاني حيث يسكن صديقه نبيل في الشقة التي تعلوهم. ندما على فعلتهم مع السومريّ؛ فلأول مرة يعتدون على شخص، لكنهم أرادوا الانتقام منه؛ لأنه ضربهم عندما راهم يعثون بأغراضه داخل خيمته.

كانت ليلة عصبية مرّت على ربيع النورس. تقلّب في سريره قلقًا ما بين سر السومريّ وبين يارا الغريب التي اكتشفت فعلتهم الشنيعة، وكيف رآته ونادت عليه من شرفتها ليلة أمس.

نام على هدير جهاز التكييف المركزي. استيقظ مبكرًا، فقد اتفق مع نبيل أن يذهبا في الصباح إلى الساحة الخلفية ليحلوا وثناق السومريّ. لم يجدا شجرة اللوز الهندي ولا السومريّ. نظرا إلى بعضهما، وتسلل الرعب إلى قلوبهما؛ فقد تذكرا وعده بأن ينزل عليهم لعناته.

عاد ربيع النورس إلى البيت قبل أن يستيقظ أحد. شغل آلة التسجيل، وأدار شريط الكاسيت، وضع السماعات على أذنيه ليستمع لأغاني مايكل جاكسون، يتتبع كلمات الأغاني المطبوعة على غلاف الكاسيت البلاستيكي. كلما حاول أن يتناسى قلقه، عادت الصور المحفوظة من يوم أمس تُقلق خيالاته المضطربة.

مضت ساعات النهار مملّة. بدأت العطلة المدرسية الصيفية، وجلسوا في البيت في غرفهم المكيفة، وأمام شاشة التلفاز يقلّبون القنوات الأرضية بضجر؛ فارتفاع درجات الحرارة يمنع الناس من الخروج من منازلها إلا للضرورة خلال النهار، وفي الليل ترتفع نسبة الرطوبة، ويصبح الطقس دبقًا وخانقًا.

كانت أسرة بُرهان النورس تنتظر وصول تأشيرة زيارة لدخول دولة الكويت، فمن يوم انتقالهم من مصفاة الشعبية في الكويت إلى مصفاة أم النار في الإمارات، لم تتمكن زوجته فريال العباسي من زيارة عائلتها التي تقيم هناك؛ بسبب صعوبة إجراءات منح التأشيرة.

دعت يارا الغريب صديقتها الجديدة شهد للعب معها في منزلها؛ فقد أخبرتها أن والدها يحضر لها الألعاب من الدول الأجنبية. خرج ربيع النورس مع شقيقته ليذهب ويتفحص الساحة الخلفية مرة أخرى ويعود إلى البيت، لكنّ ساقيه قادته إلى باب منزل يارا الغريب مع شقيقته.

استقبلهما والد يارا ورحب بهما. كانت والدتها لا تزال في استديو التلفزيون لتقديم برنامج (اليوم جمعة، إجازة سعيدة). أشرفت يارا

الغريب في ذلك اليوم كشمس دافئة. قبّلت خدّي شهد بنعومة جعل شهد تتسجّ وتفكّر، هل يعقل أن يكون أحد من الإنس بهذه الرقة والعدوبة!

مدّت يدها الصغيرة نحو ربيع النورس بهدوء لتصافحه، بالكاد استطاع لمس أطراف أصابعها الرفيعة. تلوّن خدّاه بلون التوت خجلاً. سحبت يارا الغريب شهد من يدها بلهفة لتدخلا حجرتها، لحظتها تطايرت من شعرها المفرد رائحة عطر رقيق كأنوثتها التي رسمت في المكان فراشات وأغاني.

ظل ربيع النورس ساهماً في شعرها المفرد وحواسه في نشوة غامرة؛ فيوم أمس عقصته في جديلة طويلة تتمايل يمنة ويسرة على ظهرها بنوع من الخيلاء.

بدت حجرة يارا الغريب كجزء من بلاد العجائب بتصميمها الحديث؛ فكل شيء فيها مرتّب جدّاً ومنظّم وغالي الثمن. شعرت شهد بالاختلاف الكبير بينها وبين صديقتها. سريرها العالي بأغطيته الملونة المزخرفة، دولاب كبير تتكدّس فيه ملابسها الجميلة، مكتب للمذاكرة وكرسيه الصغير، وأهم قطعة بالنسبة إلى شهد دولاب الألعاب.

استدعى والد يارا ربيع النورس إلى غرفة مكتبه. كانت غرفة كبيرة يوجد في زاويتها بيانو كبير، وعلى أرفف مكتبتها رُصت الكتب بعناية، تفوح من المكان رائحة التبغ المنبعثة من الغليون. جلس والديارا خلف مكتبه الخشبي متجهّم الملامح وقسمات وجهه صلبة، بيده كتاب يتحدث عن ملحمة جلجامش. وصل في قراءته إلى طريقة غوص جلجامش إلى أعماق البحار للوصول إلى زهرة الخلود، التي يقصد بها اللؤلؤ، النبتة الغريبة التي تجدد الشباب وتعيد نشاط الحياة؛ لأن فيها سرّاً من أسرار الكون.

ظل ربيع النورس واقفاً وأوصاله ترتجف. أول شيء فكر فيه أن تكون

يارا وشت به، وأخبرت والدها عن حادثة ضرب السومريّ مع صديقيه. بإشارة من يده التي تحمل الغليون طلب والد يارا منه أن يجلس. أخذ نفساً عميقاً وأغلق الكتاب بين يديه ثم قال: «هل تعلم يا ربيع أن والدك صديقي منذ أن كنا نسكن في مخيم الشاطئ في غزة؟».

ابتسم ربيع النورس ابتسامة سخرية بانّت على وجهه، وهز رأسه بالنفي، وقال محدثاً نفسه: «إن والدي لا يتحدث معنا في أمور الحاضر، فكيف سيحدثنا عن ماضيه؟».

حدّثه والد يارا عن طفولته مع أبيه في المخيم، وعمله في البحث والترميم في مدافن حضارة أم النار. أخرج بعض الكتب التي فيها صورٌ للمنطقة والآثار المكتشفة فيها. دقق ربيع النورس في الصور، ولاحظ أن بعض القطع الأثرية رآها في خيمة السومريّ، عندما دخلوها وهو غائب. شعر بالهواء ثقيلاً في صدره وكاد يختنق بهواجسه.

فتحت يارا الغريب أبواب دولابها الممتلئ بالألعاب ودمى باربي وساندي. لم تصدّق شهد ما رآته، وزفرت نَفَسَها حسرات على حظّها الناقص من الدلال والنعيم. كانت لا تُذَكر دروسها إلا إذا وعدّها أهلها بشراء دمية، عكس شقيقتها أريج التي انصبّت اهتمامها على القراءة والمذاكرة، وكان طموحها أن تكمل تعليمها الجامعيّ.

نظر ربيع النورس إلى عيني عاهد الغريب والد يارا، وخالطه شعور بأنه يعلم بقصة السومريّ؛ فقد لمح ضحكة عند طرف فمه. شعر بالنيّران تآكل عقله. استأذن وطلب أن يذهب لينادي على شقيقته ويعودا إلى البيت. عندما دخل حجرة يارا شاهد الشرفة، وتخيّل كيف أنها استطاعت مراقبتهم منها.

تساءل في نفسه عن احتمال أن تكون يارا أخبرت شقيقته شهد؟

تصبَّب العرق من جبينه وشعر بالغيثان. نادى على شهد بحزم: «شهد، هيا بنا لقد تأخرنا». ردت عليه بضجر: «ربيع، أرجوك دعنا نلعب قليلاً». أذعنت لطلبه مرغمة وردّت بتأفف: «حاضر».

أعطتها يارا الغريب قبل أن ترحل كيسًا، وضعت فيه بعض الألعاب التي نالت إعجابها. فشكرتها شهد بحرارة، وبريق في عينيها يلمع من الفرح.

توتّر ربيع النورس وأسرع في خطواته إلى البيت، وعقله يطحن الأفكار في رَحى الشك والحيرة. شهد تمشي خلفه بثقل، تركل الحصى في الهواء غاضبة من انتهاء الزيارة بسرعة، وتؤرجح في يدها كيس عطايا الألعاب.

عند مدخل العمارة الثقيا بالدهما العائد من وردية المساء، يحمل بين يديه مغلّفًا، وفور وصولهم إلى الشقة نادى بُرهان النورس على زوجته فريال العباسي، كانت تشاهد مسلسلًا مصريًا على التلفاز، قامت والدعر بادٍ على وجهها، وبكل هدوء غير معهود من زوجها ناولها المغلّف البني الكبير، قلبته وتحسّست محتوياته بأطراف أصابعها. تحلّق الجميع حولها، شخصت ببصرها، ونقّلت نظراتها بين زوجها والمغلّف، فتحته وهي لا تدري أهو يحوي خيرًا أم شرًا، فضّت محتوياته لتكشف المجهول الكامن في أحشائه.

* * *

في تلك الأثناء كانت يارا الغريب مستلقية على سريرها استعدادًا للنوم، تنتظر عودة والدتها من استديو التلفزيون. دخلت سميرة الزاجي حجرة ابنتها ووجدتها لا تزال مستيقظة، أطفأت الضوء الكبير، وأنارت لمبة صغيرة بجانب سريرها.

جلست قريبا تمسّد على شعرها لتقصّ لها الحكاية الوحيدة التي

تردّدها دائماً عن ظهر قلب: «كان يا مكان في قديم الزمان... كان في صبيّة زغيرة سافرت وحيدة لبلاد بعيدة... حبّت شب مهضوم واتزوجوا... لكنو مات وتركها تبكي طول الليالي... مرت الأيام وحبّها فارس شجاع... هي كمان حبتو لانو حنون وطيب... لبسها خاتم لولو... وركبها على الحصان الأبيض ليزفها على شط البحر في غزة... رشوا عليهم الفل والياسمين... وعدها إنو يحطها بعينونو... عاشت حياة حلوة معو وجابت للدني بنت حلوة هي كل شي إلها بهالحياة... وتوته توته خلصت الحدوته».

لكن يارا الغريب لم تنم، وسألّت والدتها: «ماما، أريد أن تحكي لي قصة جديدة؟». كانت سميرة الزاجي شاردة ولم تسمعها. استدارت ابنتها، أغمضت عينها، ونامت ككل ليلة.

ظلّت المديعة سميرة الزاجي تعيش بين طيفي الماضي والحاضر؛ قلبها مقسوم إلى قسمين لم يضمّده سوى وجود ابنتها في حياتها.

* * *

«الفيزا... الفيزا»، صرخت فريال العباسي غير مصدّقة أنها بعد سنوات طويلة سترى أسرتها، وتسافر إلى الكويت لقضاء إجازة العطلة المدرسية مع أبنائها؛ فقد رُفض طلبهم للحصول على تأشيرة زيارة أكثر من مرة إلى أن جاء القبول أخيراً.

اشتريت فريال العباسي حقائب كبيرة، وغسلت الملابس التي سيأخذونها معهم. أعدت لائحة طويلة بالهدايا التي ستشترها استعداداً للسفر في نهاية شهر يونيو.

وانتظرت الليلم.

الليلم، رجل أفغاني يحمل على ظهره بقجة كبيرة من القماش ويدور بها بين المنازل كصندوق العجائب، تحتوي على تشكيلة غريبة من

الملابس النسائية والرجالية، والعطور، والبهارات، والألعاب، وأدوات المطبخ، ومستلزمات الحلاقة، ومفكّات، وزيت الشعر، والصابون، والقائمة تطول. النساء ينتظرن الليل دائماً ليستمتعن بمهرجان التسوّق المتنقل، وهو أهم مصدر للهدايا زهيدة الثمن.

كانت فريال العباسي في ذلك اليوم أنشط السيدات في البحث داخل البقجة، تساعدها ابتناها شهد وأريج في أخذ المقاسات والاختيار بين القطع المعروضة.

لم تترك مجالاً لجاراتها كي يشتري، حُجّتها أنها ستسافر والليلم ليست له مواعيد ثابتة يأتي بها، حتى إن بعضهن تضايقن من تصرفها المبالغ به، وعدن إلى بيوتهن وهن يبرطن غير راضيات.

كانت فرصة التسوّق من الليلم أفضل من الذهاب إلى السوق المركزي داخل مدينة أبو ظبي؛ لبعد المسافة وارتفاع درجات الحرارة والرطوبة، خاصّة وأن محلات السوق في الهواء الطلق وليست داخل مجمّع تجاري مغلق.

أحس ربيع النورس بالملل ولم تكن تثيره فكرة السفر، أمضى وقته في أعمال شغب؛ شد شعر شهد، سرقة نظارة أريج، التدخين خلسة عن والديه على شرفة غرفته، إفراغ محتويات الحقائب التي انتهت والدته من ترتيب الأغراض فيها، لتنهال عليه بالألفاظ النابية والشباشب الطائرة من كل حدب وصوب، فيخرج من البيت ولا يعود إلا في وقت متأخر، حين تكون والدته قد انتهت من ترتيب الحقائب.

* * *

هرب ربيع النورس من أجواء السفر ليلعب مع صديقيه بالدراجات الهوائية في الشارع الرئيسي الذي يتوسّط المجمع السكني. فجأة، تناهى

إلى مسامعهم صراخ أولاد من إحدى العمارات يحاولون إلقاء القطة
سونيا من الطابق الخامس.

صوت موائها العالي محزن ومخيف. هلع الشباب الثلاثة لإنقاذها.
استطاع ربيع النورس الإمساك بها في اللحظة الأخيرة، قبل أن تسقط على
أسفلت الشارع القاسي. ترنح عندما التقطها، وسنده صديقيه قبل أن يقع
معها بسبب سرعة سقوطها.

أنجبت القطة سونيا جميع القطط الموجودة في المجمع السكني،
وأصبحت زعيمتهم. لها حضور خاص عند جميع العائلات. تميّزت
بشعر لونه أبيض مع بقع رمادية اللون. تسكن في منزل حارس أفغاني
لإحدى العمارات السكنية.

أحياناً يتسلّط عليها الأولاد المشاكسون ويعذبونها بلا رحمة. وفي
إحدى المرات حشروا بعنف كرة زجاجية صغيرة في عينها اليسرى.

المسكينة سونيا.

ودّع سليم صديقيه لأنه سيذهب إلى مستشفى توام في مدينة العين
لإجراء بعض الفحوصات والتحليل الطبية مع والدته، وسيحتاج الأمر
إلى غيابه مدة شهر أو أكثر. فقد عانى سليم من عدة أعراض غريبة بعد
حادثة ضرب السومريّ.

عاد ربيع النورس إلى البيت كي يطعم القطة سونيا. عندما انفتح باب
المصعد وجد الليلم؛ محبوب النساء، يفترش الساحة الواسعة بين الشقق
الأربع في الطابق. والدته وشقيقتها مشغولات في اقتناص القطع المميزة
من بين خليط الأغراض. انشغالهن أثار ضجره، لم يتحمّل الفوضى
وضجيج النساء وصخبهن المحموم في الشراء، ومفاوضاتهن حول
الأسعار.

عاد ربيع النورس أدراجه إلى الشارع مع القطة سونيا، حملها بين

ذراعيه، ومشى في خطوات شاردة حيث قادته أفكاره وهو اجسه إلى العمارة المقابلة لعمارته. يريد أن يجد نهاية لشكوكه حول السر الذي تعرفه يارا الغريب عنه.

* * *

شعر ربيع النورس أن يارا الغريب تعاني الوحدة؛ بسبب غياب والديها لساعات طويلة في العمل؛ فوالدتها المذبة سميحة الزاجي مشغولة في إعداد البرامج وتقديمها في التلفزيون، أما والدها فيعمل في المصفاة بنظام الورديات في أوقات مختلفة.

دقات خفيفة على باب الشقة تنبّهت لها يارا الغريب الجالسة تقرأ في حجرتها. قامت مترددة من سريرها، ونظرت من العين السحرية في الباب. رأت رأساً منحنياً نحو الأرض ولم تتعرف على هوية الشخص الواقف. سألت بصوت عالٍ: «من هناك؟». جاء الرد: «أنا ربيع».

- ماذا تريد؟ والداي ليسا في البيت.

- أحضرت لك شيئاً أريد أن أريك إياه وسأذهب.

تردّدت، ثم قالت: «انتظر».

ذهبت وأحضرت المفتاح، فتحت الباب قليلاً بحيث أخفت جسمها خلفه، وأطل وجهها رويداً. لمح ربيع النورس مسحة من الحزن بين أجفانها الناعسة.

قال لها ليطمئن قلبها: «يارا، لا تخافي. أحضرت لك قطعة، سمعتك تخبرين شهد أنك تحبين القطط، أليس كذلك؟».

رفع القطّة سونيا نحوها، فتحت الباب أكثر وأخذتها من بين ذراعيه بسعادة، عبست وخط رقيق تغضن بين حاجبيها، سارع ليخبرها أن بعض الأولاد الأشقياء آذوها، وأدخلوا بوحشية كرة زجاجية بلورية في إحدى عينيها.

تحركت القطة سونيا وانزلت من بين ذراعيها. ذهبت يارا الغريب بسرعة إلى المطبخ وتركتها عند باب الشقة، أحضرت صحنًا فيه حليب سائل ووضعتة على الأرض، لعقت القطة سونيا الحليب بنهم؛ فقد كان يبدو عليها الجوع والعطش. انحنت نحوها لترت على رأسها، وتمنحها الطمأنينة والأمان. انحنى ربيع النورس بدوره نحوها وهو سعيد؛ لأنه استطاع أن يمزق شرنقة الوحدة التي تعيشها الفتاة الجميلة.

سألته: «لماذا لا تطعمها؟». أجب وهو يتلثم: «لم أعرف تدبير أمري، خاصة أن أمي طلبت مني عدم إدخالها إلى البيت خوفًا على الأثاث، والجميع مشغولون مع الليلم لشراء الهدايا؛ لأننا سنسافر قريبًا إلى الكويت في إجازة الصيف لزيارة بيت جدي لأمي المقيمين هناك».

شخصت ببصرها متعجبة؛ فلم تكن على علم بسفرهم، ولم تخبرها شهد بذلك. استطرذ قائلاً: «بالأمس جاءت التأشيرة». كانت يارا الغريب كالغريق الذي وجد طوق السلوى بصحبتهم وفقده بسرعة، تنهدت وعادت تحدد صامته في القطة سونيا.

رفع ربيع النورس القطة سونيا عن الأرض بعد أن لعقت آخر قطرة حليب في الطبق، وأخذ يمسد على جسمها الناعم بهدوء ليخفي توتره. يريد أن يتخلص من صراعه الداخلي. سألها بحذر: «يارا، هل أخبرت أحدًا بما رأيته عند شجرة اللوز الهندي في الساحة الخلفية لعمارتكم؟». مدت يدها نحو القطة سونيا وربت عليها. أجبته من دون أن تنظر نحوه: «اطمئن. لم ولن أخبر أحدًا بما رأيته».

رفعت ببصرها نحوه تتأمل ملامحه وقامته. أحس بنبضات قلبه تدق بقوة وتخفق طبول نار الشك في دمه. تساءل في نفسه: «يا ترى، هل هي صادقة أم كاذبة؟».

كان يشعر نحوها بالكره والانجذاب في الوقت نفسه، ولا يعرف تفسيرًا للتناقض في عواطفه نحوها بهذه الطريقة.

شكرها ثم غادر وقد تملكته رغبة للرقص في الشارع. تأكّد بأن سرّه بأمانٍ ولن ينفضح أمرهم. اقنع نفسه بأن الفتاة المدلّلة لا تكذب. ردّد في داخله أن صوتها بدا فيه الصدق. قفزت القطة سونيا من فوق كتفه، وهرولت بعيداً في عتمة الليل باتجاه الساحة الخلفية المشؤومة، ركض خلفها ليجد مفاجأة بانتظاره.

شاهد ربيع النورس البوشييه الصفراء التي كان يضعها السومريّ على رأسه، رُبطت بأحد فروع شجرة اللوز الهندي التي عادت بعد اختفائها. اقترب بسرعة ليتأكد ممّا يراه. التفت باتجاه غرفة يارا الغريب، ووجد أنوارها مطفأة. هرول باتجاه منزل صديقه نبيل الذي ارتبك لحضوره المفاجئ. تعجّب ربيع عندما رأى نبيل يغلق الباب الزجاجي لشرفته بسرعة ويحمل في يده سلة قش. جلس على الكرسي ليلتقط أنفاسه المتقطعة قائلاً: «نبيل، هل يمكن أن يحقق السومريّ تهديده وينزل لعناته علينا؟»، ردّد نبيل، وهو غير مقتنع: «لا أعتقد ذلك. هل تصدّق هذا المجنون!».

عاد ربيع النورس إلى بيته وهو في حيرة من أمر السومريّ. لم تغمض له عينٌ، البيت مقلوب رأساً على عقب، وحالة الطوارئ معلنة في جميع أرجائه؛ لأن موعد السفر أؤف.

* * *

أعجب نبيل بشخصية شهد وأنوثتها المتمرّدة. في البداية لم تبادل الإعجاب. ظلّ يحاول أن يلفت نظرها واهتمامها، ولكنها كانت تصدّه دائماً، وتشيح بوجهها عنه.

كانت تربطها بشقيقته علياء علاقة تحدّ ومناكفة، قبل أن تتحوّل إلى عداوة شرسة. ففي أحد الأيام، زارتها شهد في منزلها؛ لتريها هدية والديها بمناسبة عيد ميلادها، كانت عبارة عن بيت باربي الجديد، المكوّن من ثلاثة طوابق، تتوزّع داخله قطع أثاث، وعلى سرير باربي نامت دمية رجل كزوج لباربي ضمن أغراض البيت، يرتدي بدلة سوداء، وربطة عنق. مرّة

تضعه في الغرفة، ومرة في المطبخ. تأمر وتنهي في بيت باربي حتى إنها لم تسمح لشهد باللعب به أو لمسه.

كانت شهد قد أحضرت لعبتها معها. ضحكت عليها على لعبتها القديمة الشاحبة، وقارنتها مع لعبتها الجديدة وملابسها الحديثة. لم تتحمّل شهد كمية السخرية التي قذفتها بها عليها. شعرت شهد بإهانة أنوثتها؛ فركلت البيت بقدمها لينهار بيت باربي على رأسها البلاستيكي. نشب عراك بينهما، انتهى بشد الشعر، ما استدعى تدخل نبيل ووالدته لفك العراك بينهما.

فكرت شهد بحيلة للانتقام من عليها، واستغلّت إعجاب نبيل بها رغم أنها لا تطيقه وتشمئز من اللحم المترهل للجزء السفلي من جذعه، لأنه يبدو عندما يتحرك مثل المادة الهلامية في حلوى الجلي. شعّلت شهد مجسّاتها الأنثوية وجذبتة نحوها. ولم يكن نبيل المسكين ينتظر أكثر من إشارة صغيرة منها ليندفع ملبياً لها كل ما تطلبه.

طلبت منه أن يُهرّب ألعاب عليها في سلة قش عبر شرفة غرفتها. تردّد نبيل في تنفيذ المطلوب فالطلب ليس بسيطاً. غضبت شهد منه. لكنه خاف أن تهجره فأذعن لأوامرها، فهو لم يكن ليستطيع أن يرفض لها طلباً، أملاً في مبادلتة مشاعره نحوها.

* * *

خطّطت شهد مع يارا الغريب للقيام برحلة صغيرة قبل سفر أسرتها إلى الكويت. طلبت شهد من والدتها أن تحضر لها طبقاً من المعجنات. غضبت منها والدتها لأنها مشغولة بتحضيرات السفر، لكنها ألحّت وبكت، فرضخت الأم لطلبها مجبرة. أما يارا الغريب فطلبت من والدها أن يحضر لها كعكة مزينة من المخبز لانشغال والدتها بعملها؛ فلا وقت لديها للمطبخ.

أوصت شهد شقيقها ربيع النورس أن يحضر العصائر والساكر من

البقالة، أما نبيل فكان عليه إحضار البساط الذي سيجلسون عليه فوق العشب الأخضر، وجمع ثمار شجرة النبق، والأزهار الصغيرة الصفراء لمصّ «العسل» منها. ربيع ونبيل جاءا يركبان على درّاجتيهما ومعهما الأغراض المطلوبة.

جلسوا أربعتهم تحت ظل شجرة الصفصاف بين العمارتين بعد الساعة السادسة ومع بداية غروب أشعة الشمس الحادة. طوال تناولهم للطعام كان ربيع النورس يحدّق في خصلات شعر يارا الغريب الذهبية. تقترب منها فراشات بيضاء صغيرة تمسكها بين راحتي يديها ثم تطلقها للأعلى وهي تضحك مما أدخل السرور إلى قلبه عندما رآها سعيدة.

بعد تناولهم للطعام، عزف ربيع النورس لهم على غيتاره. دندن مع اللحن بعض الأغنيات الإنجليزية ويارا الغريب تردّد معه الكلمات بطلاقة. أعجبت بأدائه وطلبت منه عزف أغنيات تحبها لفرقة new kids on the block. استغلّ نبيل انشغالهما بالغناء وحاول بحذر أن يصل إلى يد شهد، لمسها وضم أصابعها بقوة، لكنها تجاهلته.

لعبوا (الغميضة) وفي آخر جولة استطاع ربيع النورس الإمساك بيارا الغريب، قبل أن تصل إلى الشجرة المتّفق عليها لقول كلمة (كُمستير)، ولخفة وزنها، وقعا على بعضهما وتدحرجا على العشب، وألتقيا وجهًا لوجه. فزعت وهي في حضنه وبين يديه، وأصابعه حول خصرها. نهضت بسرعة وغادرت تهوول إلى بيتها. غمزه نبيل، وركب كل واحد منهما على دراجته الهوائية، وانسحبا مرتبكين.

ظل ربيع النورس يتخيّل لو أن يارا الغريب ركبت خلفه على الدراجة الهوائية، والتصق نهداها بظهره. أخبر نبيل بأمنيته، وهو يتنهد ويزفر الآهات. فجأة، سكت والتفت نحوه وسأله: «وأنت، من تريد أن يركب خلفك؟». ارتبك نبيل الشارد بخياله نحو شهد، وكاد أن يفقد توازنه فوق الدراجة ويقع على الأرض.

في المساء، ذهب ربيع النورس إلى الساحة الخلفية لعمارة يارا الغريب. كانت أنوار حجرتها مضاءة. بعد أن تأكّد أن والديها غير موجودين، وأنها وحدها في البيت، ألقى حجراً على شبّاك شرفتها. فتحت الستارة ثمّ أغلقتها. كرّر رمي الحجر، فقد كان مصراً على رؤيتها. تردّدت في الخروج، ولكن قلبها لم يطاوعها فخرجت وهي متململة. اعتذرت لها عن الحادثة، وأنه لم يكن يقصد ما حصل. قبلت اعتذاره ثمّ ودعها من بعيداً لها قبلة في الهواء، وأخبرها أنهم فجر اليوم التالي سيسافرون إلى الكويت. في طريق عودته، فكّر كثيراً بنظرة وشعور يارا الغريب نحوه، وتساءل في نفسه كيف لفتاة مدلّلة جداً أن تعجب بشاب أقل من عادي وقصير القامة؟

ودّع ربيع النورس صديقه نبيل الذي كان يستعد للسفر إلى لبنان، لقضاء الإجازة عند أسرة والدته، التي هُجرت مرتين، مرة بعد حرب العام ١٩٤٨ من قرية صفورية شمال فلسطين إلى مدينة طرابلس، ثمّ إلى مخيم عين الحلوة للاجئين الفلسطينيين جنوب مدينة صيدا بعد الحرب الأهلية في لبنان.

ستظلّ الحياة يا ربيع النورس تلعب معك لعبة (الغميضة) مع يارا الغريب. وستلتقيان على شاطئ الخليج بعد أن يذوب القلب من الشوق.

(٧)

دولة الكويت (شهر يوليو العام ١٩٩٠م)

مدينة الكويت

محافظة الأحمدية / منطقة الصباحية

العودة إلى مراتع الطفولة والصبا له وقعٌ غريبٌ على النفس. هل تشعرين يا فريال العباسي بالحنين والشوق؟ ستجدين بعض الذكريات لم تقفل بعد وما زال باب القلب مفتوحاً لتلج فيه. أما قلبك الوليد يا أريج سيكتب له على أرض الكويت أن يذوق سُكر الحب وعذابه لأول مرة. سيشهد ساحل الخليج العربي من الإمارات إلى الكويت قصص الحب والنار.

ودّع بُرهان النورس زوجته فريال العباسي، وأولاده الثلاثة بعد أن أوصلهم إلى مطار أبو ظبي الدولي. سافروا إلى الكويت عبر الخطوط الجوية الكويتية، في رحلة استغرقت ساعةً ونصفاً تقريباً.

ظلت شهد جالسة تراقب مضيفات الطائرة اللواتي لم يسلمن من غيرتها وفضولها. تفحصت ثيابهن، تأملت مساحيق تجميلهن، عاينت طريقة مشيهن، وبين الحين والآخر كانت تُخرج مرآتها الصغيرة من حقيبتها؛ لتعدّل تسريحة شعرها، وتقرص وجنتيها لتبقيهما حمراوين، ثم تضع طبقات متتالية من مرطب الشفاه اللامع على فمها الكبير؛ لتنعش أنوثها.

تصفّح ربيع النورس المجلّات الموجودة في جيب الكرسي الذي

أمامه بضجر. يتلمظ بذكرى اللحظات التي لعب فيها مع يارا الغريب (الغميضة). يتأمل يديه اللتين ضمّتا خاصرتها الناعمة، يشعر بحرارة أنفاسها التي لفحت وجهه، ولملمس شفيتها اللتين كاد أن يلثمهما لولا نهوضها بسرعة من بين ذراعيه غاضبة وهي تبكي. تدفقت الأحاسيس في خياله كومضات جعلت جسده الصغير يختلج بقشعريرة لذيدة، سكنت بعدها جوارحه غافياً في حُسن المقعد اليابس.

أما شقيقته التوأم أريج، فقد بدت بمظهر رزين مع نظاراتها الطبية الكبيرة، وهي تقرأ بشغفٍ كتاباً للأديبة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطيء)، استعارته من مكتبة المجمع الثقافي في أبو ظبي.

ادّعت والدتها النوم، وأغمضت عينيها على حزنٍ ودمعٍ وشوقٍ، وأخذت تجترُّ من ذاكرتها سنوات عمرها، وذكريات بعيدة قُضتها في الكويت.



كانت فريال العباسي تبلغ اثني عشر عاماً، عندما هاجرت أسرتهما بعد حرب ١٩٦٧م، من إحدى قرى قضاء طولكرم، مع بقية العائلات التي أصابها الذعر والخوف. فقد أمرت القوات الإسرائيلية السكان عبر مكبرات الصوت بترك منازلهم طواعية، وشنّوا عمليات هدم للمنازل بواسطة الدبابات والجرافات. ساروا على الأقدام مسافات طويلة، وشقّوا طريقاً محفوفاً بالخطر، نحو معابر نهر الأردن إلى الضفة الشرقية.

كان والد فريال العباسي يعمل في فلسطين مزارعاً في إحدى البيارات. يحصد محصول الخضار والفواكه، ويسافر إلى مدينة القدس؛ ليبيعه في السوق هناك على عربة صغيرة. وفي آخر الليل يفتersh الأرض وينام بالقرب من الصخرة المشرفة في مسجد قبة الصخرة بعد أن يصلّي، العشاء ويستغفر الله على الزلّات التي كان يقع بها مع بعض النساء اللواتي يطلبن مساعدته في شراء حاجيات البيت، ويعرضن أنوثتهن عليه بينما أزواجهن مرتخين في المقاهي يشربون النرجيلة.

لجأت عائلتها إلى الأردن، واستقروا في مخيم الوحدات للاجئين الفلسطينيين في مدينة عمّان. حصلوا بعدها على أرقام وطنية، وجوازات سفر أردنية مؤقتة (خمس سنوات) مكّنتهم من السفر إلى الكويت.

كانت الظروف الإنسانية والمادية صعبة في مخيمات اللجوء؛ الكثير من العائلات فرّت للبحث عن لقمة العيش في دول الخليج، التي ازدهرت فيها الحياة بعد اكتشاف النفط، وشقّوا حياة جديدة أقلّ بوؤساً.

خاف والدها من المجتمع الجديد الذي انتقلوا إليه، ومنعها من الذهاب إلى المدرسة. جلست فريال العباسي في البيت، لتساعد والدتها في أعمال المنزل. قبّلت بالأمر الواقع على مضض، ولم تكن راضية عن قرار والدها المجحف بحقها.

خطبها ابن عمها الذي انتقل معهم إلى الكويت، لكن لظرف طارئ سافر إلى العراق على أن يعود لعقد قرانهما، فلا عاد الخطيب ولا أكملت تعليمها. تزوّجت قبل أن تكمل الثامنة عشرة من بُرهان النورس، وعوّضتها الأمومة عن كل الأمانى التي لم تحقّقها في شبابها.

لم تكن راضية بقرار السفر إلى الإمارات؛ لأنها ستبتعد عن أسرتها وتعيش وحدها هناك في غربة مزدوجة. شعرت بأن الرجوع إلى الكويت مرة أخرى، لن يكون في وقت قريب أو متاحًا بسهولة؛ بسبب صعوبة إجراءات تأشيرة الدخول.

حاولت ثني زوجها بُرهان النورس عن قراره المفاجئ، لكنّ أصدقاءه شجعوه على هذه الخطوة. لم يكن يأخذ برأيها في قراراته المصيرية. باعوا أثاثهم بين ليلة وضحاها. انتقلوا للعيش في المجمع السكني التابع لموظفي مصفاة أم النار حيث مكان عمله الجديد.

لكن، ظلّ لغز غياب ابن عمها يحوك في صدرها طوال السنين الماضية. لم تقتنع بأنه مات غرقًا في نهر دجلة، عندما كان يحاول إنقاذ

صديقه حيث سبح عكس تيار المياه القوي الذي مزّق صدره، وتوفي على الفور.

* * *

وصلت طائرتهم في المساء. استقبلهم شقيق فريال. تدفقت كتلة هواء ساخنة رطبة جدًا، بمجرد انفتاح أبواب المطار الخارجية. تأفف ربيع النورس من طقس الخليج؛ فقد فرّوا من الحر إلى الحر.

توجّهوا إلى منطقة الصباحية، حيث استأجر والد فريال العباسي منزلًا من عائلة كويتية. كان اللقاء حميمًا، ارتجفت فيه القلوب العطشى للأرواح التي طال بينها الفراق. دموع اختلطت بالضحك وتشابكت بالقبلات، وانصهرت كل سنوات الغياب بلمح البصر.

كان أول لقاء يجمعهم بعد أن كبر التوأمان اللذان ولدا في الكويت، وتعرفوا على الابنة الجديدة شهد التي ولدت في الإمارات. أحس ربيع النورس بنظراتهم المريرة تجوس في جسمه، وأسئلة وقحة تقفز من عيونهم؛ لتعرف سبب قصر قامته مقارنة مع شقيقته التوأم أريج.

بعد أن نام الجميع، سهرت النسوة في حجرة والدة فريال العباسي حتى الصباح. صوت صدى همساتهن، وثرثراتهن وصل إلى مسامع ربيع النورس، المتمدّد على السرير في حجرة خاله يحاول أن ينام. كان يتأمل سقف المكان الجديد، ويصغي إلى هدير جهاز التكييف، ينفث الهواء البارد بلا توقف.

* * *

في صباح اليوم التالي لوصولهم إلى الكويت، استيقظت جدة ربيع باكراً؛ لتصنع لهم أفراس الفلافل الطازجة. التأم شمل العائلة إلى مائدة الإفطار المفروشة بما لذ وطاب من الأجبان، والمربيات، والمخللات، والمكدوس، والبيض المقلي، والزعتر، وزيت الزيتون الذي ذكره بلون عيني يارا الغريب.

بعد تناولهم الطعام، خرج ربيع النورس وخاله من المنزل لشراء بعض الأغراض. توقفًا على ناصية الشارع في انتظار سيارة أجرة. كانت درجات الحرارة عالية جدًا، والرطوبة قاتلة، والجو خانقًا لا يطاق.

في تلك الأثناء، مرّ جارهم وابن صاحب المنزل الذي يستأجرونه، مشعل العلي، فقد تزوج والده من سيدتين؛ الأولى ابنة عمه وله منها عشرة أبناء، أما زوجته الثانية فعراقية الجنسية وهي التي أنجبته.

كان مشعل العلي يفيض بالرجولة والشباب، إلى درجة جعلت ربيعًا يبيع ريقه مرتين، قبل أن يتمكن من رد السلام الذي طرحه عندما أوقف سيارته ذات الدفع الرباعي، وأنزل بهدوء زجاج نافذتها ليلقي عليهما التحية. عُرفَ بخُلُقِه الدمث وتواضعه، وجمعه بأسرة جدّ ربيع علاقة طيبة.

تميّز بمظهره العصري، فلم يكن يرتدي الثوب العربي الأبيض، والغتر، والعقال، بل ارتدى بنطال جينز وقميصًا بتعريقات صغيرة، تاركًا عروتي قميصه الأولى والثانية مفتوحتين؛ لتُظهر طول رقبته المشربّبة وصدره الكبير. صنّف شعره الأسود الكثيف إلى الخلف. وضع نظارات سوداء من ماركة عالمية، وخاتمًا من الفضة في أصبع يده اليسرى بجوار الساعة الفاخرة.

سأل عن وجهتهما، وأصرّ أن يأخذهما معه في سيارته؛ فقد أقسم جدّ ربيع على عدم اقتناء أي وسيلة مواصلات، بعد الحادث المريع الذي ذهب ضحيته ابنه البكر.

* * *

في تلك الأثناء، كانت جدّة ربيع تثرثر مع ابنتها فريال وتسألها بإلحاح وفضول، عن سبب عدم حضور زوجها معهم إلى الكويت. زرعت في عقل ابنتها هاجس استغلاله لغيابهم؛ ليرتبط مع امرأة أخرى تنجب له ولدًا آخر؛ فولد واحد مريض لا يكفي.

بدأت تقصّ عليها بأسلوبها المريب، حكايا كثيرة عن عائلات عربية

مغتربة في الكويت، تزوج فيها الرجال على زوجاتهم خلال غيابهنّ في الإجازات الصيفية؛ فالنساء الجميلات المغريات من جنسيات مختلفة مباحات في تلك البلاد، وعلى رأيها: «مثل الهمّ على القلب». أخبرتها عن قصة جارهم الصحفي، الذي أرسل زوجته -ابنة عمه- وأولاده لقضاء عطلة الصيف في الأردن، ثمّ عاد وحده إلى الكويت؛ ليعقد قرانه على زميلته الصحافية اللبنانية، التي مارست عليه طقوس الغنج بنطق كلمات فرنسية بطريقة مغرية، وارتداء ملابس مثيرة تكشف أجزاء من صدرها وساقها.

أثر الكلام في نفسية والدة ربيع، وبدأ القلق والشك يتسرّبان إلى قلبها، الذي لا يثق بالرجال. أكلت نفسها من التفكير، خاصّة أن الرحلة ستمتد لشهر كامل، وزوجها برهان النورس سيكون وحده في أبو ظبي.

لم تستيقظ فريال العباسي من شرودها إثر كلام والدتها إلّا على وقع أقدام ابنها عندما عاد من الخارج، ضمّته بقوة إلى صدرها. تعجّب ربيع النورس من تصرّف والدته وظلّ مشدوهاً. مسحت دموعها القلقة، وقامت بسرعة نحو المطبخ كي تشتّت خيالاتها المضطربة، وتساعد في إعداد وجبة الغذاء.

اجتمعت النسوة لإعداد الديك الرومي، الذي أصرت جدّة ربيع على تحضيره في المنزل احتفاءً بالضيوف. جلس ربيع وشهد بالقرب من طاولة المطبخ، يأكلان قطعاً من المخلل والزيتون، ويثرثران.

اقتربت الجدّة من ابنتها فريال وهمست في أذنها بحزم: «رح أعملك كاسات هوا وأمرجلك بطنك بس تيجيك الدورة. لازم تحبلي وتجيبي أخ لربيع بلاش ما يتجوّز عليك برهان من ورا يباسة راسك وتياستك»، ثمّ نعتت بنات هذا الجيل بأنهن مائصات ومائعات، وأشّرت عليهن بالإصبعين الأوسطين من يديها بحركات بذئنة، متفاخرة بنفسها؛ بأنه ما كان يمضي عليها أربعون يوماً على آخر ولادة إلا وهي حبلى بثمرّة جديدة من زوجها.

أصابها هوس الحَبَل والولادة بعد أن توفّي لها ابنان توأمان في بداية زواجها. دفعت ثمن ذلك غالباً من صحتها التي تدهورت، وأصابها فتاق في البطن وآلام في الظهر والركبتين.

حاول ربيع وشهد التلصص على وشوشاتهما، لكن صوت قرعة الصحون والأواني، حال دون وضوح الكلام؛ فقد كانت لغة عيون الجدة، وحركات فمها مثيرة لفضولهما.

اشتهرت الجدة بطبق ظهور النساء الحالمات بالحَبَل، الذي كان عند بعضهن عزيزاً. تغدق عليها النساء اللواتي حبلن على يدها المباركة، بالهدايا الثمينة من خواتم الذهب، والقماش الفاخر، والملابس الجاهزة، والعطور الفرنسية، فذاع صيتها في المنطقة، وأصبحت مقصدهنّ الأوّل للعلاج الطبيعي.

* * *

التصقت أريج بخالتها الصغيرة. جمعتهما الكثير من الضحك والأسرار؛ فقد حصلت الأخيرة على شهادة الثانوية العامة حديثاً، وكانت الوحيدة من بين شقيقات والددة ربيع، التي أكملت تعليمها المدرسي؛ فوالدها لا تروقه فكرة تعليم البنات، ولم يشجّعهنّ عليها.

كان طموحها أن تدخل الجامعة، لكن حلمها انطوى في دفتر النسيان؛ لأنّ البحث عن عريس لها هو الشغل الشاغل لوالديها؛ فهي في نظرهما قد كبرت، وتحتاج إلى زوج.

تزوّجت باقي شقيقات فريال العباسي، واستقررن مع أزواجهنّ ما بين السعودية والأردن، أما أشقّاؤها الذكور، فهاجروا إلى أمريكا في منتصف الثمانينيات. لم يكن والد فريال راضياً عن سفر أبنائه، الذين انسحبوا بالتدريج إلى أمريكا؛ لأنها في اعتقاده «بلاد الكفّار».

رفض الوالد حوالات النقود التي كان أبناؤه يرسلونها له من الخارج،

ولم يصرف منها قرشاً، صارخاً بهم عبر الهاتف: «بديش فلوس أمريكا»، إلى أن كبر في السن، وما عاد يستطيع الخروج إلى العمل، فتقبل الحوالات الأمريكية التي ساعدته على البقاء في الكويت أطول مدة ممكنة؛ لأنه رفض العودة إلى المخيم في الأردن.

لم يعد يغضب لأنهم سافروا أو يطلب منهم العودة، بل اقتنع بقرارهم وسافر لزيارتهم وحده بحجة الشوق لأولاده. وقتها ظلت زوجته -والدة فريال العباسي- تتصل بأولادها لتتأكد أنه لم يتزوج من فتاة أجنبية صغيرة وجميلة، فبرأيها «بنات أمريكا مثل الألعاب».

حرص جد ربيع على تعزيز وطنية أولاده بالحديث عن فلسطين وحربي العامين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ومقاومة الاحتلال، وسرد القصص والحكايا عن حياتهم السابقة هناك. علق خريطة فلسطين في غرف نومهم، ووضع صورة كبيرة لمسجد قبة الصخرة في صدر غرفة الضيوف كنوع من البروتوكول الذي كان سائداً في بيوت الفلسطينيين المغتربين. حاول أن يشحنهم معنوياً، ويبقيهم مستعدين للعودة إلى الوطن عندما يأتي الوقت المناسب، وفي النهاية هاجروا إلى أمريكا للبحث عن مستقبل جديد.

عندما تقدم برهان النورس لخطبة ابنته قبل به زوجها؛ لأنه أعجب بوطنيته التي تمثلت في اقتطاع مبلغ من راتبه شهرياً؛ لدعم حركة فتح التي أسسها الرئيس ياسر عرفات في الكويت، بالتعاون مع أصدقائه أعضاء حركة الإخوان المسلمين في مصر صلاح خلف، وخليل الوزير، والبعثي فاروق القدومي.

شكل ياسر عرفات مجموعات من أصدقائه الفلسطينيين، الذين آمنوا برسالته الوطنية. تعرف برهان النورس وأشقائه عليه عندما سافروا للعمل في الكويت. تطورت هذه المجموعات إلى أن كوّنت حركة فتح، التي أخذت على عاتقها الكفاح المسلح؛ لتحرير فلسطين من الاحتلال. ظلت الحركة تعتمد على المساعدات المالية السخية من رجال الأعمال، ومن العاملين في قطاع النفط.

سأل ربيع النورس خاله عن سبب اعتمازه الكوفية ذات اللونين الأبيض والأسود. أخبره أن الرئيس عرفات كان يعتمرها دائماً؛ فقلّده الفلسطينيون وأصبحت بعد ذلك رمزاً وطنياً لهم. ووعدته خاله بأن يشتري له واحدة.

رصدنا معاً مدن فلسطين وقراها على الخريطة المعلقة على الجدار. شعر ربيع النورس بإحساس الانتماء لأول مرة عندما تأمل موقع مدينة غزة طويلاً، وتذكّر أن يارا الغريب أخبرته أن والدها نزع إليها قادمًا من مدينة يافا بسبب الحرب.

في ذلك الوقت كانت يارا الغريب تعاني الوحدة في غيابه. ظلت تتجول بضجر بين حجرات البيت الفارغ في غياب والديها. تجتري اللحظات الأخيرة يوم لعبوا (الغميضة)، وكيف وقعت في حضان ربيع النورس. دخلت مكتب والدها. فتحت البيانو وعزفت نفس المقطوعات التي عزفها على غيتاره في آخر لقاء جمعتهما. لكنها للحظة سمعت صوته يهمس بحنان، من داخل اللحن، وهو يلقي التحية «السلام عليكم»، فانهارت تبكي شوقاً له، وضربت بأصابع يدها على البيانو بقوة، متألمة من لوعة الفراق.

* * *

تمددت فريال العباسي بجسدها المضطرب على السرير. شعرت بالخجل وهي ترفع ثيابها. ظلت تحدق في سقف الغرفة، غير قادرة على النظر في وجه والدتها التي بدأت عملية التدليك بوضع عدة قطرات من زيت الزيتون على بطنها.

اقشعرت بدننها؛ حيث شعرت ببرودة الزيت على جسدها العاري. بسملت والدتها، وبحركات من راحتي يديها الاثنتين دلكت بطنها عدة مرات. تدعو بصوت عال أن تحبل ابنتها وتنجب أخاً لربيع. ثم ضغطت على صرتها بأصبعها الأوسط؛ لتتأكد من وجود رحمها في مكانه الصحيح لا منزاحاً ولا مقلوباً.

غابت فريال العباسي بعيداً، وهي تتخيّل أن بين يدي زوجها برهان النورس في تلك اللحظة، أنثى أخرى جميلة كاللعبه يطوف بجسدها اليانع، ويتمرّغ بها على سريرها. فجأة، زفرت بأه عالية، خرجت من أعماقها المحمومة، وجحظت عيناها. اعتقدت والدتها بأنها توجّعت من التدليك، فتوقّفت تسألها عن سبب ألمها. لكن خيال فريال العباسي استعر، وجمع بها إلى غرفة نومها في أبو ظبي، وأحرقها الظنون الشيطانية.

لا تدري المسكينة أن زوجها استغلّ سفرهم، وعاد إلى عادته القديمة في شُرب الكحول. يحاول أن ينسى ذكريات لا تزال عالقة في ذهنه، يوم هاجروا قسراً من مدينة اللد في فلسطين، وأحرق جثة والده مع جث الشهداء بعد المعركة الأخيرة. يقشع بدنه كلما تذكّر لحظة رشّوه مع أخوته بمادة DTT في مدينة غزة، عندما التحقوا بمدارسها وحلقوا شعر رأسه بالكامل. كلما طافت هذه الذكريات شعر بشعلة ألم تنوّج في صدره؛ فيسعل كثيراً باصقاً البلغم الأصفر، بعد نوبة قوية تمزّق حلقه. شعر بالملل في غياب عائلته؛ فعاث فوضى في البيت؛ رمى ألعاب شهد القديمة، وطلّى طاولة السفارة، ورسم على الكرتون صوراً لبيوت ومزارع مزّقا بعد ذلك.

قلّبت فريال العباسي نفسها ونامت على بطنها. أحرق والدتها قصابة صغيرة من صحيفة قديمة، ووضعتها بسرعة داخل كأس زجاجية وقلبتها على أسفل ظهرها؛ لتسحب منه الآلام، وتغلقه ليثبت الحبل المرتقب. أعادت عمل كاسات الهواء عدة مرات متتالية، قبل أن تضع لصقة طبية في المنطقة المعالجة، من ماركة جونسون أمريكية الصنع.

كانت مشاعر فريال العباسي متضاربة بين رغبتها في الحبل، وعدمه بعد هذا العمر، لكن في نهاية الأمر رضخت لرغبة والدتها، وها هي العملية قد انتهت، على أمل أن يكتب لها النجاح.

* * *

في المساء جاءت لزيارتهم في البيت سيدة جميلة شديدة البياض تلبس عباءة سوداء وتضع طرفها على رأسها. قفز قلب الخالة عندما سمعت والدتها ترحب بالضييفة وتستقبلها في الصلاة.

سألتها أريج: «ما خطبك يا خالة؟». قالت والفرح يرقص بين عينيها: «هذه أم مشعل العلي جاءت لزيارتنا».

- لماذا تحمّست كثيراً لحضورها؟

- آه يا أريج. أم مشعل العلي هي إحدى زوجات صاحب المنزل الذي نسكنه. أنجبت وحيداً بعد فضل الله ومساعدة أمي لها بتدليك بطنها وعمل كاسات الهواء كي تحبل. ابنها مشعل يا أريج أجمل رجال الأرض، كأنه النبي يوسف عليه السلام في حُسن خلقه وخلقته.

لم تولي أريج اهتماماً بالشباب من قبل، ولم تعجب بأحد منهم؛ بسبب انغماسها في الدراسة والكتب، وحرصها على التفوق في تحصيلها الدراسي.

- إلى هذه الدرجة هو وسيم!

- أنت لا تصدّقين؟ عليك أن تستيقظي غداً صباحاً، وتشاهده عندما يذهب إلى الجامعة بكامل أناقته، ثم احكمي عليه يا ست زبيدة.

أم مشعل نخلة عراقية من الموصل. نبتت جذورها في العراق، وألقت بظلال روحها في الكويت، لتنت من جسدها لبنة وحيدة؛ ابنها مشعل العلي.

إنها سيدة متواضعة وأنيقة؛ وقد كشفت عن ذوق رفيع في ملابسها بعد أن وضعت عباءتها جانباً. جلست شهد بالقرب منها تتأملها مبهورة بجمالها. ترصد قطع الذهب المسجى على نهديها الممتلئين، وتتفحص الأساور العديدة في معصمها الذي كلما حركته وهي تتحدّث ينبعث من تدافع الأساور على بعضها رنين براق. بكل عفوية قالت لها شهد:

«أنت أجمل من أي دمية باربي رأيتها في حياتي». ضحكت أم مشعل واستلطفت براءة شهد وعفويتها. نظرت والدتها فريال العباسي نحوها بنظرات حادة وأمرتها أن تقوم من جانب الضيفة. توعدتها بعقاب قاسٍ لكلامها غير المناسب. لم تعبأ شهد لتهديد والدتها ونظراتها السّاخطة، وظلت جالسة بكبرياء، تضع ساقاً فوق ساقٍ، وتشبك أصابع يديها حول ركبتيها؛ لأنها ترى في نفسها سيّدة صغيرة.

جلست النسوة متحلّقات بحفاوة حول الضيفة. تقصّ عليهن الحكايا بلكنتها العراقية والضحكة لا تغيب عن مبسمها. في منتصف حديثها لمعت عيناها وهي تتذكّر ما آلت إليه أحوال العراق بعد حرب الخليج الأولى التي خسرت فيها أشقّاءها؛ فعَلّت وجوه النسوة مسحّة حزين، وتحجّرت ملامحهنّ المّا.

غيّرت جدّة ربيع مجرى الحديث؛ لتبعد غمامة بكاء كئيبة تكاد أن تمطر، وقصّت عليهن حكاية زواجها الغربية. كانت مصمودة مع ثلاث عرائس في كوشة واحدة. لم ترَ عريسها إلّا في يوم الزفاف الجماعي. دخل أربعة رجال يرتدون العباءات على أكتافهم، على أن يجلس كل عريس بجانب الفتاة، التي تشير والدة العريس إليها.

كل رجل مختلف عن الآخر. دخل الرجل الأوّل القصير. دعت في سرّها ألا يكون من نصيبها، والثاني رفيع وشديد السمرة، والثالث سمين، عندما اقترب الرجل الرابع وجلس بقربها تنفّست الصعداء؛ فبرأيها كان أجملهم.

ومع ذلك فإن جدّة ربيع قالت إنها ظلّمت في هذا الزواج المبهم، فقد كانت أجمل صبايا طولكرم: «جمالي بحلّ عن حبل المشنقة. بسّرتي بيضا مثل الجبنة، وكسماتي مثل الغزال». فغرت شهد فاهها غير مصدّقة كلام جدّتها، وقالت بانفعال: «جدّتي، أنت لست جميلة، أنت تشبهين الفيل». تفاجأت الجدّة بجراتها الزائدة. سحبت فريال العباسي ابتها من يدها عنوة وهي تبكي، وحبستها في الغرفة عقاباً على كلامها.

* * *

نامت أريج على أمل رؤية مشعل العلي في صباح اليوم التالي. استيقظت الخالة أولاً ثم أيقظت أريج. وقفنا أمام شباك غرفتهما المطلة على منزل أم مشعل، حيث كانت كل زوجة من زوجاته تسكن في منزل منفصل.

استيقظ ربيع النورس يبحث عن خُفيهِ؛ ليذهب إلى دورة المياه. وجد خالته وشقيقته مُتَسَمَّرَتين عند النافذة بلا حراك. تسلل بهدوء ليعرف إلى ماذا تنظران بشغف ولهفة.

تفاجأتا بوجوده المباغت بينهما كاللص، وانفلتت منهما صرخة وصل دويها إلى مسامع مشعل العلي، الذي انتبه والتفت برأسه ناظرًا نحوهما من فوق كتفه، باعثًا بابتسامة صغيرة، ونظرة ساحرة من عينيه الكبيرتين لحظة أنزل نظاراته الشمسية.

ظل ربيع النورس يبتزّ خالته وشقيقته أريج بالموقف الذي أمسكهما مُتَلَبَّسَتَيْن به وهما تراقبان جارهم مشعل العلي، وأحس بإعجابهما به. كان ثمن سكوته أن تقلبا له البطاطس في الصباح، وتحضرا طَبَقًا كبيرًا من البوشار في المساء، عندما يجلس لمشاهدة مباريات المصارعة الحرّة مع خاله أمام التلفاز، في غرفة مبرّدة شبه معتمة.

تأمّلت أريج وجهها في المرأة، ونظرت إلى نفسها لأول مرة بعين مختلفة. تبحت داخلها عن الأنثى العصيّة على الظهور، والمختبئة خلف النظارة الكبيرة التي تحجب جمالها المُهمَل.

بعدها بأيام ذهبت النسوة لزيارة أم مشعل في منزلها. أعددن معها حلوى المنّ والسلوى. وضعت السكر مع الماء على نار هادئة حتى غلى المزيج تمامًا، ثم أضافت له العسل مع القطر المكثّف وتركته ليتماسك. ساعدتها أريج وخالتها في خفق بياض البيض في وعاء آخر حتى أصبح كريمي القوام. أضافت أم مشعل الخليط السابق بالتدريج على البيض المخفوق وحرّكته بهدوء.

قالت أريج وهنّ يحضرن الحلوى: «قرأت في أحد الكتب أن حلوى المنّ والسلوى غذاء أنزله الله على بني إسرائيل وهم في الصحراء الجرداء عندما فروا بدينهم مع سيدنا موسى هرباً من فرعون مصر. المنّ، مادة تفرزها إحدى الأشجار لونها أبيض وطعمها مثل العسل، أما السلوى فنوع من طيور (السّمّان)».

رشت أم مشعل: الهال، وجوزة الطيب، والمكسّرات على الخليط، ثمّ صبته على صينية مرشوشة بالطحين، وبعد أن برد بدأ بتشكيله بين راحتي أيديهن على هيئة دوائر، ثمّ غمسنه بالطحين. أكملت أريج حديثها: «ولكنّ بني إسرائيل سئموا من المنّ والسلوى، وطلبوا من سيدنا موسى عليه السلام أن يدعو الله كي يخرج لهم من الأرض البصل والثوم والعدس والخيار والفول». علت وجوه النسوة علامات التعجب لرفض بني إسرائيل نعمة المنّ والسلوى.

دخل مشعل العلي المطبخ وهن مشغولات في تكوير الحلوى والكلام. ألقى التحيّة عليهنّ. لأول مرة ترى أريج مشعل العلي من مسافة قريبة. تأكّدت أريج من صحة كلام خالتها عنه، وعن سحر رجولته. كانت عيناه تترينان برموش طويلة كثيفة وسوداء. بشرته بيضاء كبشرة والدته، نبتت على ذقنه لحية خفيفة زادت من جاذبيته، وبدا رزيناً في حضوره بينهنّ.

اقترب من والدته، قبّلتها على وجنتيه، ودعت الله أن يحفظه لها. نظر صوب أريج وابتسم ابتسامة صغيرة بعد أن اقتنص حبة حلوى قريبة من يدها، ودخل حجرته يمشي الهويناً. تنهدت أريج وأخفضت بصرها مرتبكة من فرط الإحساس الذي دغدغ أنوثتها البكر. في تلك اللحظة انفتحت شباك صغير جداً في قلبها دخل منه نسيم عليل لم تعرف له اسماً.

في ذلك اليوم، لم تذهب معهنّ شهد لأنها كانت معاقبة لطول لسانها مع أم مشعل. شعرت بالملل. فردت شعرها البرتقالي المجعد، ثمّ أجرت مكالمة دوليّة مع صديقتها يارا وجلست ساعتين وهي تثرثر معها، ولم

يكتشف أحد أمرها. أخبرتها يارا أنها في غيابهم عن أبو ظبي تعرّضت للكثير من المضايقات من بعض شباب المجمع السكني، وتقدم لخطبتها أحدهم، لكن والديها رفضا الفكرة بشدة.

لم تتمكّن أريج وخالتها من مغادرة البيت وحدهما، وظلّتا تراقبان مشعل العلي من الشبايك، تعرفان مواعيد خروجه إلى الجامعة وعودته، ويبادلهما الإعجاب والنظرات المسروقة خلسة عن الجميع. أحسّت الخالة بأنه مال لناحية أريج فمنعتها من مراقبته، واختلقت معها المشاحنات التافهة لتبعدها عنه.



في أحد المساءات الحارّة، اجتمعت العائلة لشرب الشاي. كان جدّ ربيع يضع أذنه على الراديو ذي الغطاء الجلدي بّي اللون. يستمع للأخبار من إذاعة الـBBC اللندنية. دقّ باب المنزل. فتح ربيع النورس الباب للضيف. كان عم فريال العباسي يقف عند عتبة الباب منكسّاً. نظرت إليه فريال العباسي نظرة عتب؛ فلم تكن تتوقّع حضوره، وهمت بالدخول إلى حجرتها.

نادى عليها عمّها قائلاً: «فريال، انتظري قليلاً. أريد أن أعطيك أمانة». استدارت لتسمع ماذا يريد أن يخبرها. جلسوا وكأنّ الطير على رؤوسهم. في الماضي خطبها ابن عمها وقرأ الفاتحة قبل سفره إلى العراق، وبعدها لم يعد ولا أحد يدري سبب غيابه الحقيقي. ناولها عمّها رسالة مطوية تبدو قديمة، أخذتها منه على مضض وضممتها بين راحتي كفيها. أخذت الهواجس تعصف بداخلها وتفكر: «هل يعقل أنها من ابن عمها؟ وإذا كانت منه فماذا كتب فيها؟ هل يريد تبرير عملته؟ وهل يحتاج بعد رحيله إلى شرح الأسباب؟ أيعقل أن تمضي كل هذه السنين وفي القلب مشاعر قديمة؟».

تردّدت في فتح الرسالة التي تجعّدت في راحتها، ثم ألقتها في سلة المهملات بعد طول تفكير، فقد عافت نفسها معرفة أي شيء عنه. دخلت إلى فراشها وحاولت أن تنام، لكن لم يغمض لها جفن. أخذت الرسالة

من السلة ودخلت دورة المياه حتى لا تضيء الغرفة ويستيقظ أبناؤها. لكن وحده ربيع النورس أحسَّ بقلق والدته، وبقي مستيقظاً يتظاهر بالنوم. لم تستوعب كل الكلام المكتوب فيها وعلمت أنه كان منتمياً لحزب البعث، وتجنّد مع الجيش الذي قاتل في حرب الخليج الأولى، وطلب من والده ألا يعطيها الرسالة إلا إذا استشهد. مرّقتها إلى نتف صغيرة ورمتها في المرحاض، طاوية صفحة من ماضيها إلى الأبد، وهي تفتح السيفون.

* * *

مرت الأيام وقاربت الإجازة على الانتهاء. ربيع النورس متشوّق لرؤية حبيبته يارا. أسرّ لخاله عنها، وطلب منه أن يأخذه إلى السوق ليشتري لها هدية. خرجا في جولة إلى المحلات التجارية في ساحة الصفاة، ثم ذهبوا إلى أبراج الكويت الموجودة قريباً من البحر. من أحد محلات ابن التاجر الهندي راو موهان، التي أسسها في أوائل الثلاثينيات - عندما كانت ساحة الصفاة تراباً، تتجمّع فيها الإبل القادمة من السعودية - اشترى ربيع النورس لحبيبته صندوقاً وضع فيه طوقاً للشعر، وقلم تلوين للشفاة، وعلبة عطر صغيرة، وعندما عاد إلى منزل جده، أخفى الصندوق في الكوفية الفلسطينية هدية خاله له.

ذهبت النسوة للتسوّق. أجبرت شهد والدتها على شراء دمتين كبيرتين تغنيان عند الضغط على زر في منطقة البطن. يصل طول كل منهما إلى نصف متر. كان في نيتها أن تعيظ عليها شقيقة نبيل بالدمى الجديدة وتنتقم منها.

* * *

بقيت ساعات قليلة تفصلهم عن السفر. دقّ باب المنزل. فتح ربيع النورس الباب ليجد مشعل العلي يقف أمامه بكامل أناقته، سأله بهدوء بعد أن طرح السلام: «أين خالك؟»، ردّ عليه: «موجود، تفضل».

- شكراً، سأنتظره عند الباب.

طلبت أم مشعل من ابنها أن ينقل فريال العباسي وأولادها إلى المطار؛ لعدم امتلاك عائلتها سيارة. فرحت أريج للخبر المفاجئ، لكنها أخفت سعادتها عن خالتها حتى لا تثير حفيظتها.

جلست أريج خلف مقعد مشعل العلي، الذي بدوره عدل من زاوية مرآته؛ ليتمكن من النظر إليها، ومراقبتها خلال الطريق إلى المطار. دق قلب أريج بقوة؛ فهذه أول مرة تشعر بالعاطفة نحو شاب.

عندما انطلقوا أخبرهم مشعل العلي عن نيتهم السفر إلى العاصمة لندن خلال الأيام القادمة؛ لقضاء الإجازة الصيفية. طلب من خال ربيع إعطاء إيجار المنزل لجارهم، الذي اتفق معه على ذلك؛ فقد كانت العائلات في الخليج تهرب من الحر الشديد وتقضي أشهر الصيف في الدول الأجنبية، ذات الطقس اللطيف.

قلب ربيع النورس يرى بيوت مدينة الكويت وشوارعها تضحك له، وتشاركه سعادته. ودّع المدينة وهو يتأمل الطريق عبر نافذة السيارة، يفكر بالوصول إلى أبو ظبي بأقصى سرعة ليرى يارا الغريب.

كانت شهد متحمسة للعودة كي تنفذ خططها الشيطانية. تتخيل كيف ستكون ردة فعل علياء عندما ترى دميتهما الغريبتين وتبتسم بخبث في سرها. أما والدتهم فريال العباسي فعصرت نفسها قلقاً وعضت على شفتها وهي تفكر بزوجها. تخيلت نفسها وهي تشم رائحة أنثى في حجرتها، وترى بعينها شعرة شقراء على وسادتها، وأثار قبلة على ياقة قميص زوجها.

تمنت أريج أن يسقط الزمن في الفراغ، وأن تطول الطريق ولا تنتهي الشوارع. أن يخنفي المطار وتتبخر الطائرات لتبقى في السيارة مع مشعل العلي. تحفظ في ذاكرتها رائحة عطره التي ستهدئها إلى مكانه بعد أشهر قليلة.

تعكّر مزاجها وسالت على خدها دمعة عندما تذكّرت أن خالتها
ستحظى بمراقبته وحدها، عبر الشبايبك والأبواب خلسة؛ لتنعش قلبها،
أما هي فلن تعود تراه مرة أخرى، وسيكون كل واحد منهما في دولة.
لكن، يا ترى هل من الممكن أن تدور الأيام والحوادث ويلتقي مشعل
العلي مع أريج من جديد؟ ولا تكون لكلمة مستحيل مكان بين قلوبين
نبضا بالحب البريء.

(٨)

دولة الإمارات العربية المتحدة (شهر أغسطس ١٩٩٠م - شهر أغسطس
١٩٩١م)

جزيرة أم النار

إسكان موظفي مصفاة أم النار لتكرير النفط (أدنوك).

ستغيّر الحرب الموازين. تشعل نيران القلوب، وتتركها تحترق من
دون أن يطفئها أحد.

في صباح اليوم التالي لوصولهم إلى أبو ظبي عائدين من إجازتهم
في الكويت، اتصل ربيع النورس بصديقه نبيل على هاتف منزله ليتقابلا.
سأله عن صديقهما سليم، فأخبره أنه عاد من مستشفى توام من إمارة
العين، لكن والدته منعت عنه الزيارة. امتعض من تصرفها القاسي. تألم
صديقه الحائرين عن حالته الغامضة التي تكتنفها الأسرار؛ فقد افتقدا
مرحه وضحكاته، بعدما سيطر عليه المرض، بعد حادثة ضرب السومريّ.

أصرّ نبيل على صديقه أن يأتي ليتناول معه طعام الغداء. ظلّ ربيع
النورس بين الحين والآخر يشرد بخياله يفكر في يارا الغريب. قال له
نبيل: «ربيع، هل اعترفت ليارا بحبك لها؟». هز رأسه بالنفي. كان ينتظر
الوقت المناسب ليصارحها بحبه، ويتأكد من مشاعرنا نحوه؛ حتى لا
يكسر أحدهما قلب الآخر.

في غياب شقيقها، اتصلت شهد بالهاتف بيارا الغريب، لتخبرها عن

عودتهم من السفر. عند الغروب جاءت والشوق يحملها لرؤيتهما. في تلك الأثناء، ذهب ربيع النورس بدرّاجته الهوائية، خلف العمارة التي تسكنها ليراها ويكلّمها من شرفتها. وجد إنارة شقّتها مطفأة، فظنّ أنها خرجت مع عائلتها.

عاد ربيع النورس إلى البيت متأخراً. رمقته شهد بنظرات غريبة. أخبرته أن يارا الغريب حضرت وسألت عنه. امتعض لعدم تمكّنه من رؤيتها. وفي الوقت نفسه خالطه شعور بالسعادة؛ لأنه شعر باهتمامها. عادت يارا الغريب إلى منزلها حزينة. كانت متشوّقة للقاء ربيع النورس. توقّعت أن يهتم لأمرها، ويحرص على مقابلتها بعد طول غياب. كانت تخبّي له هدية؛ فقد طرّزت أول حرفين من اسميهما على منديل قطني أبيض، لكنه نكّس قلبها الوليد، فوضعت في دولاّب الألعاب عازمة على أن لا تعطيه المنديل.

دخل ربيع النورس إلى حجرته يبحث بلهفة عن الكوفية الفلسطينية، التي لفّ بها صندوق هدية يارا الغريب، لكنّه لم يجد الصندوق، وكانت الكوفية ملقاة على السرير. كان مذهولاً لا يصدق كيف اختفت الهدية. دخلت عليه شهد تندنن، ولم تكثرث عندما رأت حجرته فوضى من آثار البحث. نظر إلى رأس شقيقته المشاكسة ليجدها ترتدي طوق الشعر، الذي اشتراه لحبيته. غضب من تصرفها الأرعن. تشاجرا وعلا صوتهما. ظلت شهد تبكي ليلتها، فقد وبّخها وبعثها بكل أسماء الحيوانات. ظل طوال الليل يفكّر حائرًا، لا يدري ماذا سيهدّي حبيته بعد عودته من الكويت!

في اليوم التالي، طلب من شقيقته الاتصال بيارا الغريب؛ لتأتي لزيارتها، لكنها اعتذرت منهما، بسبب انشغالها بدرس الموسيقى مع معلمتها الروسية. حرص والدها عاهد الغريب على تعليمها العزف على البيانو. فقد كانت جدّته القبرصية، تعلّمه العزف والغناء، أيام كانوا يسكنون بسلام ونعيم، في مدينة يافا الفلسطينية، قبل حرب العام ١٩٤٨. ظلّت يارا الغريب تعتذر عن زيارتهما لأيام متتالية، مختلقة الأعذار

في كل مرّة. تُفكّر في ربيع النورس وتتمنّى أن تلتقيه، ولكنّ كبرياءها منعها من ذلك. أحسّت بأنه لم يعطها الاهتمام الكافي، ويدلّها بمشاعر الحب، ويُرضي أنوثتها. أحسّ هو الآخر أنها غاضبة منه، لكنها لم تمنحه فرصة كي يشرح لها، وأخذت منه موقفًا سلبيًا.

أخذ قسرًا من شقيقته شهد إحدى الدمى التي اشترتها من الكويت، تعويضًا عن الهدية التي سرقها منه. جُنّ جنونها، وكادت أن تفقد عقلها. لكن في النهاية، رضيت مُرغمة.

حلق ربيع النورس ذقته. ارتدى بنطال جينز جديدًا، وقميصًا بعروق ناعمة. صَفّف شعره الأسود إلى الخلف، ووضع رشّات من العطر حول عنقه. كان يحاول تقليد مظهر مشعل العلي؛ لإعجابه بأناقته ورجولته. انطلق مع شقيقته إلى منزل حبيبته لزيارتها من دون موعد.

ارتبكت يارا الغريب عندما فتحت لهما الباب. مد يده ليسلم عليها، وبادلتها السلام، من دون أن تنظر إلى عينيه. استقبلتهما والدتها المذمعة سميرة الزاجي، في صالة الضيوف. كان ربيع النورس يفرك راحتي يديه على فخذه؛ بسبب خجله من والده يارا، التي لاحظت ارتباكهما من صوت أنفاسهما المتقطّعة، وهما يتبادلان الحديث عن المدرسة، التي ستفتح أبوابها قريبًا، وعن استعدادهما لاستقبال العام الدراسي الجديد.

ابتسمت والدتها سرًّا في داخلها، وهي ترى ابتها تشعر بنسمات الحب الرقيقة. غابت بخيالها إلى أجمل أيامها مع المرحوم أسعد الشرع؛ زوجها السابق. لا تزال تحتفظ بوهج المشاعر الأولى، رغم كل السنين التي مضت. نحن نكذب على أنفسنا أننا تجاوزنا ذكرياتنا مع أحبائنا وندمج في الحياة. الحياة تمارين لنسيان الذكريات.

أمام والدتها لم يتمكّن ربيع النورس من الكلام كما يشاء. أراد أن يعتذر لها عن تغيّبه في اليوم الذي حضرت فيه إلى بيته، أراد اخبارها أنه كان يقف أمام شرفتها على أمل أن يراها. أراد أن يقول لها كم اشتاق إلى وجهها، ولون عينيها، وضحكتها، وأنها لم تغب عن خياله طوال سفره.

في نهاية الزيارة، قدّمت شهد إلى يارا الغريب الدمية على مضض قائلة إنها منها ومن شقيقها. شكرتهما بحرارة، وانفجرت أسارير وجهها بضحكة صافية. كتب لها ربيع النورس رسالة وضعها داخل ثوب الدمية. كل المشاعر التي لم يتمكّن من البوح بها، فاضت على الورق الأبيض. عندما وجدت الرسالة وقرأتها رقّ قلبها لكلماته الحنونة، وأخرجت من دولابها المنديل، الذي طرّزت عليه أول حرفين من اسميهما، وارسلته مع شقيقته شهد داخل صندوق خشبي، في أول يوم التحقوا فيه بمقاعد الدراسة.



ذهبت أريج مع صديقتها الشيماء، إلى منزل مس حنان لحضور درس حفظ القرآن الكريم. عند عودتهما إلى البيت، كانتا تحملان أعدادًا من مجلة الإصلاح الدعوية، الصادرة عن جماعة الإخوان المسلمين. في الطريق، أسرت أريج لصديقتها عن الشاب الكويتي مشعل العلي، وقلبا ينبض بالشوق والحنين. تضم بيديها الاثنتين المجلات إلى صدرها بقوة، وتنظر إلى السماء وهي تحدّثها عنه، وتغمض بين الحين والآخر عينها، لتسترجع ملامحه الخليجية، التي نقشتها في قلبها كي لا تنساها أبدًا.

لم تعرّ الشيماء اهتمامًا لقصة الشاب الكويتي، واعتبرت الأمر سخيفًا برمته. حاولت إقناعها أن الموضوع مجرد صدفة ولقاء سطحي، ومن المستحيل أن تعيش في وهم لقاءه مرة أخرى، وعليها في الأيام القادمة أن تهتمّ بمذاكرتها أكثر؛ لأن التفوّق في شهادة الثانوية العامة، يحتاج إلى صبر ومجهود كبيرين للدراسة والتركيز؛ لتتال أعلى الدرجات التي ستمكّنها من الحصول على مقعد في الاختصاص الذي ترغب به في الجامعة.

لم يرق لأريج كلام صديقتها الشيماء، المجرّد من الإحساس، وفضّلت أن تحتفظ بمشاعرها لنفسها. حدّقت بخطواتها حتى وصلتا إلى

العمارة وهي صامته تتساءل في نفسها: «يا ترى، ماذا يفعل الآن مشعل العلي؟ هل يفكر بها ويشتاق إليها؟».

* * *

بدأ العام الدراسي الجديد، والتحق الطلاب والطالبات بالدوام في المدارس. عادت شهد في أحد الأيام، ومرىولها المدرسي الذي ترتديه ممزق، وملطخ ببقع دم على إثر شجار في حافلة المدرسة؛ فقد جلست على الكرسي الذي تجلس عليه علياء. لم تتنازلا لبعضهما، وبدأ الشجار بتبادل الألفاظ ثم تطوّر إلى شدّ الشعر وانتهى بتمزيق المراييل وإحداث خدوش.

عاقبت فريال العباسي ابنتها شهد على قلة أدبها، وعلى المشكلة التي اختلقتها مع ابنة الجيران. صبّت جام غضبها عليها، وحرمتها من الخروج للعب مع البنات، ومن مشاهدة الرسوم المتحرّكة على التلفاز. فقد شعرت بالإحراج الشديد، من جاريتها والدة نبيل، لما حلّ بابنتها علياء. خاصّة أن شهد اختلقت معها مشكلة قبل أسبوع، وأغاظتها بالدمية التي اشترتها من الكويت.

* * *

استغل ربيع عقوبة شقيقته شهد المحبوسة بين الجدران تندب حظها، ووجدها فرصة كي يخرج مع يارا الغريب بمفردهما. مع بداية الغروب، استتر قلبان صغيران بثوب المساء. مشيا صامتين يتناجيان بصوت أنفاسهما حتى وصلا إلى حديقة صغيرة بجانب العمارة الأخيرة في المجمع السكني، والقريبة من العيادة.

ارتدت يارا الغريب فستاناً أبيض قصيراً حتى الركبتين، وعلى أطرافه شريط من الدانتيل الرفيع، ولفّ حزاماً رقيقاً من الساتان خصرها، وربطته على شكل نجمة. ربطت شعرها ورفعته على شكل ذيل حصان؛ لتمنع التصاقه برقبته بسبب الرطوبة الدبقة، حتى بدت كدمية من السكر.

وضع ربيع النورس الكوفية الفلسطينية -هدية خاله من الكويت-

على كتفيه. عندما وصلا الحديقة، خلعها ثم لفها حول عنقها، هامساً في أذنها: «يارا، أنت وطني». تبسّمت في وجهه، وشعرت بالغبطة؛ لأنها عرفت لحظتها أنها تعني كل شيء لقلبه الوليد.

في الحديقة الصغيرة، توزّعت ألعابٌ بسيطةٌ. ركباً في قرص دوّار فيه مقاعد حول محيطه، وفي المنتصف مقود عند تحريكه يدور القرص. جلست يارا الغريب، وأحكمت تثبيت فستانها بين ساقها. بدأ ربيع النورس بتحريك المقود بصعوبة بسبب الصدأ. ظلّ يحاول وسرعة القرص تزداد بالتدريج، عندما دار القرص بسرعة كبيرة فقدّ السيطرة عليه، ورمى بنفسه بجانبها. شعرت يارا الغريب بالدوار وأغمضت عينيها، انحنى رأسها على كتفه، فرفع يده ولمس شعرها الناعم لأول مرة. عندما هدأت سرعة القرص الدوّار رويداً رويداً، رفعت رأسها ببطء وتشابك لون عينيه الأسود بلون عينيها الزيتوني. تنهّدت ونظرت إلى السماء تتأمل النجوم. التصق بها ربيع النورس أكثر؛ ليدندن لها هامساً: «يارا اللي جدابها شقر.. فيهن بيتمرجح عمرا... وكل نجمة تبوح بسرارها .. يارا». أمسك أصابع يدها المرتجفة خجلاً، شمّها بعمق، وقبّل باطن يدها قبلة صغيرة.

دغدغتها لمسات شفاهه على يدها فسحبته بلطف، وابتعدت عنه قليلاً. حاولت النهوض لكنه طوّقها بين ذراعيه. قال لها بهدوء: «يارا، بحبك». لم تستطع أن تتكلّم. لاذت بالصمت تستمع لدقات قلبه الخافقة بالهفة، تتلذذ باعترافه، ووقع أنوثتها البريئة في روحه الجميلة.

ظلاً يحقدان بنظرات متوتّرة إلى بعضهما إلى أن توقّف القرص عن الدوّار تماماً. خارت قوى ساقيهما، ولم يعودا قادرين على المشي، فتملّكهما الضحك. هبطا متكئين على بعضهما، وهما يشعران بالسكينة تغمر روحيهما.

لم يشعرا بأن أحداً كان يراقبهما من بعيد. منذ لحظة لقاءهما، وعين القطة سونيا تحرّس قصة قلبين يشتعلان بنار الشوق في معبد الحب،

بقيت تنتظرهما حتى غادرا الحديقة، ثم تبعتهما وهي ترفع ذيلها إلى الأعلى مسرورة.

أوصل ربيع النورس حبيته إلى مدخل العمارة حيث تسكن. ظل يتأملها وهي تهول، يفتح وينغلق مع خطواتها الصغيرة كشكش جوربيها الناعمين. يلوح له شعرها المربوط على شكل ذيل حصان، بحركته يمنة ويسرة على ظهرها، ويودعه سعيداً وهي تبعد داخل العتمة.

جاست نظراته فستانها الأبيض العذب، كخمامة تسقي قلبه بعد الظمأ، كأس الحياة. غادر بسرعة قبل أن يأتي أحد السكان ويلحظ وجوده. دخل حجرته واحتضن غيتاره. ألقى برأسه عليه، يحرك أصابعه على أوتاره، مسترجعاً في مخيلته ما حدث في الحديقة، شاعرًا بمذاق السكر في فمه كلما تذكّر ملامحها. أغمض عينيه راضياً، بعد أن أزهى الحُب بين قلوبهما، وغداريبياً ينشر العبير والعطر، يفكر بوقوع اعترافه لها بمشاعره، منتظراً منها ردّاً بكلمة «أحبك».

دخلت يارا الغريب حجرتها شاردة، أوصالها خدرة، منتشية بلحظة اعتراف ربيع النورس بحبه لها. أَلقت بنفسها على السرير، تتلمّظ باللحظات الجميلة التي جمعتهما. دفنت وجهها في الكوفية الفلسطينية المطوّقة لعنقها، تستنشق عطره، وتُسكّنه في صدرها. نامت الصغيرة بفستانها الأبيض لأنها لم تقوَ على تبديله.

* * *

مرت الأيام بوتيرة هادئة، لكن لم يكن هذا حال الساعة الثانية والنصف من فجر يوم ٢ أغسطس العام ١٩٩٠، عندما استيقظ العالم على خبر دخول فرّق الحرس الجمهوري العراقي، مخترقة الحدود الدولية باتجاه دولة الكويت.

هاجمت كتيبة مشاة بحرية عراقية مدعّمة بالدبابات جزيرة بويان، وجزيرة فيلكا في العاصمة الكويت. أنزلت القوات العراقية قوات جوية بحرية، في ساعات الغزو الأولى. اعتقل المئات من المدنيين،

والكويتيين، والأجانب. اجتاحت المدرّعات والدبابات العراقية المدينة، وسيطرت على الإذاعة والتلفزيون الكويتي.

هرعت والدة ربيع إلى الهاتف مذعورة، تتصل بأهلها لتطمئن عليهم، لكنّ جميع الخطوط الأرضية معطلة، ولا يمكن الاتصال بأي أحد في الكويت. انهارت تجهش بالبكاء. لم تصدّق ما يحدث؛ فقبل أسابيع كانت وسط أهلها تقضي معهم عطلة الصيف. وقف أولادها خائفين ومتسمّرين؛ فقد أفرعهم انفعال والدتهم، التي لم تستطع امتلاك نفسها أمامهم. اصطحبهم والدهم وخرجوا من البيت بسرعة؛ حتى لا يفوتهم موعد حافلة المدرسة.

قطع الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان زيارته إلى الإسكندرية، وألغى احتفالات عيد جلوسه الرابع والعشرين حاكمًا لإمارة أبو ظبي. في تلك المناسبة تدرّبت شهد على رقصة تعبيرية في لوحة فنية، ضمن احتفالات مدرستها بهذه المناسبة الوطنية. لم تخل مدة التدريبات من مناكفتها للفتيات، وخاصة علياء شقيقة نبيل.

تضاربت الأسباب الحقيقية، وراء الاجتياح العراقي لدولة الكويت، ما بين الاختلاف على الحدود بين البلدين أو الخلاف على إنتاج النفط مع دول منظمة الأوبك؛ ليستطيع العراق تسديد فاتورة حربه مع إيران، بتقليل الإنتاج ورفع سعر برميل النفط.

استطاعت والدة ربيع بعد عدة محاولات مضنية، الوصول إلى أحد أقاربها في الكويت الذي طمأنها بدوره على أسرتها. كانوا ينوون العودة إلى الأردن في أقرب فرصة، يستطيعون فيها تدبير سيارة تنقلهم عندما يكون الطريق البري آمنًا. أخبروها أنهم لا يتحرّكون من المنزل. غطّوا الشبايبك بالأقمشة حتى لا يراهم الطيران العسكري خلال عملياته الليلية. وصفت لهم الجدة إحساس الخوف والذعر الذي أعادهم إلى أيام هجرتهم من فلسطين.

منع برهان النورس أولاده من اللعب خارج البيت، والتحدّث عبر الهاتف.

حذّره من الخوض في أمور الحرب والسياسة مع أي أحد سواءً مع أصدقائهم في المدرسة أو مع الجيران. لم يستطع ربيع النورس رؤية يارا الغريب من ذلك الوقت، وكان يهايتها بين الحين والآخر خلسة عن أنظار أهله.

تباينت مواقف عائلات الموظفين في المجمع السكني، بين مؤيد ومعارض للحرب. فقد انعكست أوزار الحرب على العلاقات الاجتماعية بين الجيران لاختلاف جنسياتهم، وأغلق كل واحد عليه بابه إلى حين انفراج الغمة.

كان الوضع السياسي متأزماً. أي كلام أو انفعال غير مدروس، قد يكون سبباً في إنهاء عقود عملهم، وخسارة لقمة عيشهم. شعروا بهشاشة الحياة حولهم. على كل أرض جديدة يفرّ إليها الفلسطينيون، يعملون بجدٍ لبناء مستقبل مستقرّ لهم، لتحاصرهم من جديد أمواج العواصف السياسية من حيث لا يدرون، وتدفعهم للرحيل إلى المجهول.

* * *

اجتمع خفية عن عيون الجيران ثلاثة رجال: برهان النورس، وعاهد الغريب، وأبو جهاد زوج مس حنان يشاهدون قناة الـ(سي أن أن) الأمريكية، يترجم لهم عاهد الغريب الأخبار والتحليلات السياسية، التي كان يقدمها المذيع الأمريكي لاري كنج، ويتباحثون في تطورات حرب الخليج الثانية.

بدأ العراق يعزف على مشاعر العرب، ويضع شروطاً وهميةً لانسحابه من الكويت، بربطها مع مسألة انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية، وقطاع غزة، والجولان. أضاف الرئيس العراقي كلمة (الله أكبر) إلى العلم العراقي؛ لإضفاء طابع ديني على الحرب، محاولاً كسب الإخوان المسلمين، إلى صفوف المؤيدين له.

تفاعل الفلسطينيون في الشتات مع هذه الأخبار بالإيجاب، وتحمسوا لها. اعتقد الجميع بأن فلسطين المحتلة ستحرّر على يد الرئيس العراقي صدام حسين، خاصة بعد أن أطلق الجيش العراقي في شهر يناير عام

١٩٩١ أول ثمانية صواريخ من نوع سكود على إسرائيل، أصابت تل أبيب وحيفا، ثم أُطلق ٣٠ صاروخاً آخر مما تسبب بسقوط عدد من القتلى والجرحى، ولم تتمكن أنظمة (الباتريوت) الأمريكية من صد الصواريخ العراقية. صرّح الرئيس الأمريكي جورج بوش بلهجة صارمة بأن على الجيش العراقي الخروج من الأراضي الكويتية من دون شروط. لاحظ ربيع النورس على والده حماسته الكبيرة، للعودة إلى فلسطين، منذ بداية حرب الخليج الثانية. أثار انفعال والده فضوله ليعرف السبب، متعجباً من عدم رغبته بالحديث عن ذكرياته وحياته في فلسطين. لكن بمساعدة المعلومات البسيطة عن وطن الأجداد والآباء، التي جاد بها جدّه وخاله خلال إجازتهم الصيفية في الكويت، استطاع أن يقترب من هذا الوطن الغريب، ولو قليلاً.

* * *

توعّكت والده ربيع ولزمت السرير. اعتقدت أسرتها بأن أعراض الإرهاق، والضغط النفسي الذي تمرّ به هو السبب، إضافة إلى قلقها الدائم على أهلها بعد حوادث الكويت، إلى أن جاء ذلك اليوم، الذي ذهبت فيه لعمل بعض الفحوصات الطبية، مع زوجها برهان النورس؛ للاطمئنان على صحتها.

- مبروك، المدام حامل.

هكذا قال الطبيب. جن جنون زوجها، ونزل الخبر عليه كصاروخ سكود. أمسك جسدها يهزه وهو يصرخ في وجهها: «فريال، وين راح اللولب؟». أجابت وهي تبكي: «عندما ذهبت للكويت، أجبرتني أمي على إزالته، وطبقت ظهري كي أحبل، ونأتي بأخ لربيع».

صرخ برهان النورس عليها بعد أن دفعها على السرير بقوة: «هل طلبت منك ذلك؟ كيف تتصرّفين أنت وأمك من دون أخذ رأيي؟ هل من المعقول أن نأتي بطفل والحرب مشتعلة ولا ندرى ما مصيرنا! تخلصي من الجنين فوراً أو سافري إلى الأردن عند أهلك».

ظَلَّت فريال العباسي تبكي من ردة فعل زوجها العنيفة ضد حبلها، كرهت نفسها؛ فقد استمرّت المشاجرات بينهما بلا انقطاع ليل نهار، مما زاد من وتيرة الخوف لدى أولادهم، الذين لبدوا في غرفهم تحت أغطية أسرّتهم؛ حتى لا يصل إلى مسامعهم صوت صراخ والدهم القاسي، ونحيب أمهم المؤلم.



كانت معظم العائلات الكويتية تقضي العطلة الصيفية في الخارج -هرباً من الطقس الحار- عندما نشبت حرب الخليج الثانية؛ فبادرت حكومة دولة الإمارات إلى استضافتهم مؤقتاً في مدينة أبو ظبي، إلى حين عودة الأمن والأمان بتحرير بلادهم. جُهِّزَتْ لهم شقق سكنية في عدة أحياء ومناطق في المدينة؛ ليتمكّنوا من الإقامة فيها. التحق أبناءهم بالمدارس الحكومية؛ حتى لا يخسروا السنة الدراسية. وأمّنت لهم حياة كريمة من غذاء، ودواء، ومصروف شهري. بدأت بعض العائلات الكويتية بالتوافد إلى المجمع السكني، التابع لمصفاة أم النار لتكرير النفط؛ ليسكنوا في الشقق الشاغرة في بعض العمارات.

مرّت عدة أشهر، وربيع النورس يحاول الاتصال بهاتف منزل يارا الغريب، لكن لا أحد يجيب، وبسبب الحظر الذي فرضه والده عليهم، لم يتمكن من الخروج والبحث عنها. احتار في أمر غيابها المفاجئ. أخبرته شقيقته شهد أن يارا الغريب انتقلت إلى مدرسة أخرى ولم تعد تراها. طلب ربيع النورس من صديقه نبيل أن يساعده بالبحث والسؤال عنها.

استمرّت أخبار الحرب بالتتابع؛ حيث فجّرت القوات العراقية بعض آبار النفط الكويتية مما أدّى إلى احتراقها، وتسبب ذلك بتكوين غيمة سوداء، غطّت سماء الكويت، ودول الخليج العربي، والدول المطلة على المحيط الهندي.

عقدت مصفاة أم النار محاضرات توعية لموظفيها وعائلاتهم المقيمين في المجمع السكني، كونه قريباً من منشأة نفطية. تناولت

المحاضرات أساليب التصرف في حال وصلت الغمامة السوداء إلى أجواء الإمارات. وطلب من جميع العائلات، صنع كامات منزلية؛ تقيهم استنشاق الغازات الضارة في حال حدوث أي طارئ.

جلست والدة ربيع مع بناتها وبدأن بتحضير الكمّات. أريج تقصّ قطع القطن على شكل مستطيل، وشهد تضع قطع الفحم الصغيرة بين طبقتي القطن، ووالدتهما تلف القطن المحشي بالفحم في الشاش، وتخيّط على الطرفين قطعة نصف دائرية تمكّنهم من تثبيت الكمّات خلف الأذنين لتغطّي الفم والأنف بإحكام.

ظلتّ شهد تسأل والدتها، أسئلة لا حصر لها عن الحرب: «لماذا احتلت العراق الكويت؟ لماذا يضربون حقول النفط؟ هل سنموت؟ هل سنخرج من الإمارات؟ وإذا خرجنا، إلى أي بلد سنلجأ؟ و... و...». فجأة صرخت والدتها في وجهها: «بكفي. خلص بكفي. إخرسي يا شهد».



مع تسارع التطوّرات السياسية والأيام الكئيبة، زاد قلق ربيع النورس على غياب يارا الغريب غير المفهوم. في أحد المساءات الحزينة اتصل به صديقه نبيل. جاء صوته كئيّباً وهو يخبره: «والديا ترك العمل في مصفاة أم النار، وانتقلوا إلى مكان آخر». لم يصدّق ربيع النورس ما سمعه، وأحس بأن رأسه سينفجر. عندما همّ بالخروج من منزله، وجد بوشيه مربوطة على مقبض باب شقته سبق وأن شاهد مثلها في خيمة السومريّ.

على الرغم من تنبيهات والده بالتزام البيت خاصّة في المساء، خرج يهرول نحو العمارة، التي كانت تسكن فيها يارا الغريب، ليتأكّد بنفسه من المعلومة التي أخبره بها نبيل. صعد ربيع النورس السلالم بسرعة، تكاد تتمزّق أحشاؤه من الصدمة، وفي صدره صرخة كالقنبلة. دقّ باب منزلها بطريقة جنونية. فقدّ السيطرة على نفسه، وظل يضغط على زر الجرس بقوة بشكل مستمر، ويقدمه يرفس الباب. فجأة فُتح الباب، وأطل وجه يعرفه ولم ينس ملامحه. جحظت عينا ربيع النورس وهو يحدّق

بالشخص الواقف أمامه. شعر بنصل سكين يطعن معدته. ظلاً ينظران إلى بعضهما من دون أن يتفوهَا بكلمة. تراجع ربيع النورس إلى الخلف ساحباً خطواته، والأرض تمور من تحت قدميه، وخرج مسرعاً من العمارة.

رحلت يارا الغريب، من دون أن تخبره عن مكان إقامتها الجديد أو حتى تتصل به. ظل ربيع النورس يركض في الشارع حتى ساقته قدماه إلى نهاية المجمع السكني، عند الحديقة التي جمعتهما، في آخر لقاء قبل الحرب. ركب القرص الدوّار، وبدأ يحرك مقوده بجنون، والقرص يدور بسرعة كبيرة وهو ينادي بصوت عالٍ: «ياارار!».

فجأة، هبت رياح قوية أثارت كثبان الرمال المحيطة بالمجمع السكني، وتشكّلت عاصفة رملية كادت تقتلع الأشجار. فجأة انعكست على العمارات خيالات قديمة لقطيع حيوانات المها والجمال التي عاشت في العصر البرونزي تعدو بظلالها في المكان، ثم تدفقت غمامة شديدة السواد في الأفق. دوى صوت الرعد عالياً، صم الأذان وخطف البرق الأبصار، وتساقطت الأمطار بغزارة. صرخ ربيع النورس صرخة قوية، شقت الصمت والفراغ، ثم فقد وعيه، ووقع مغشياً عليه داخل القرص الذي استمر بالدوران، ثم قذفه خارجه بسبب كسر في قاعدته؛ فانحرف القرص عن مساره، ليتكوم ربيع النورس على الأرض، والزبد يخرج من فمه.

سمعت القطّة سونيا صرخة ربيع النورس، الذي أنقذها من الموت، حين كان الأولاد يريدون رميها من الطابق الخامس. تزعمت القطّة سونيا حشداً من مئات القطط، هرعت إلى الحديقة على إثر الصوت، الذي شقّ عنان السماء الملبدة بالغيمة السوداء الكبيرة.

هل من الممكن أن يكون السومريّ قد وفى بتهديده لهم. لقد توعدّهم بأن ينزل عليهم لعناته. هل هذه أولى اللعنات؟ أم إن الغمامة وصلت إلى الإمارات قادمة من الكويت، بعد تفجير الجيش العراقي لأبار النفط الكويتية؛ مما تسبّب بتغيّرات طارئة على الطقس والمناخ والغلاف الجوي وثقب الأوزون.

عندما وصلت القطة سونيا وحشد القطط إلى الحديقة، كان جسد ربيع النورس المبتل من المطر، يرتجف وينتفض كعصفور يحتضر. لعقت القطط وجهه وجسده، تحاول إنقاذه، تموء بصوت واحد سمعه فقط، قلب والدته. أحسّت بنخزة قوية وانقباض في صدرها، ونهضت عن الأريكة مفزوعة. كانت ممدة عليها تتحسّس بطنها المنتفخ، وتفكر بتهديدات زوجها، الذي خيرها ما بين الطلاق أو التخلص من الجنين. كلما تذكّرت انفعالاته الشريرة، يتشجج جسدها، وينقبض رحمها، وتساورها رغبة بتقيؤ الجنين وكأنه سيخرج من حلقها.

بحثت عن ابنها في البيت ولم يكن في حجرته. قلبها أخبرها أن خطرًا ما يترصّ به. لبست ثيابها تريد أن تخرج للبحث عنه. عندما وقفت عند الباب، سألتها زوجها بغضب عن وجهتها في هذا الوقت المتأخر، قالت وهي تبكي: «ربيع يا بُرهان لم يعد إلى البيت». غَضِبَ والده؛ لأنه حذرهم من الخروج بسبب الظروف الحساسة التي تمر بها البلاد. أمرها بالجلوس في البيت، وانطلق للبحث عن ابنه.

تسلّلت شهد واتصلت خفيةً بنيل لتسأله عن شقيقها. قال لها إنهما تحدثا منذ ساعة تقريباً. سألتها هامسة: «هل وجدتما يارا؟»، قال: «لقد أخبرته أن والدها ترك العمل في المصفاة، وبعدها أغلق سماعة الهاتف، ولا أدري أين ذهب!». جُنَّ جنون شهد لأن شقيقها لا يتحمّل مثل هذه الصدمات النفسية؛ فهو شخص مرهف وحساس. أغلقت السماعة ساخطة على نيل، وقد انقبضت نفسها من الخبر السيئ.

خرج والد ربيع وانضم إليه نيل ووالده للبحث عنه. أما والدته فظلت تبكي وتلطم خديها. حضنت أريج وشهد والدتهما يصبرن أنفسهن من اللوعة التي خنقتهن. بقين واقفات على الشرفة، ينتظرن بارقة أمل تطمئنهن على ربيع النورس، المختفي في ظلمات الليل الأسود. انهارت والدته على الأرض. لم تتحمّل صدمة الموقف العسير؛ فهي لا تعرف أين فلذة كبدها الضائع، ولا تدري أهو حي أم ميت؟

أحد الجيران أخبر والد ربيع أنه شاهد قطعاً كثيرة، تجري باتجاه الحديقة في آخر المجمع السكني، فركض بكل قوته وقلبه ولسانه يصرخ: «ربيع».



داعب ضوء الشمس القادم من نافذة المستشفى، عيني ربيع النورس النائم تحت تأثير الأدوية، بعد الحادث الذي تعرّض له، وحوله الأجهزة تطن برنين متتابع.

تحركت مقلتها، وجفناه مغلقان ثقيلاً لا يستطيع فتحهما. لاحظت شقيقته التوأم أريج الجالسة قربه، أصبعه السبابة يرتجف قليلاً، وحنجرته تتحرك وكأنه يحاول بلع ريقه. ركضت في ممرات المستشفى، تنادي بأعلى صوتها على والديها الواقفين مع الطبيب، يسألانه عن مدى خطورة الغيبوبة التي دخلها ابنيهما.

هرع والداه إلى غرفته وهما يبكيان. كان يخشى بُرهان النورس أن يكون ما حل بابنه عقاب من الله لأنه أراد إسقاط الجنين من أحشاء زوجته معترضاً على إرادته سبحانه وتعالى، وقد نذر في قلبه ألا يعود إلى مثل هذا الأمر، داعياً الله أن يستيقظ ابنه ويعود للحياة.

بصعوبة فتح ربيع النورس عينيه، ولكنه عاد وأغلقهما مرة أخرى. بقي تحت العناية المشددة قرابة الشهرين، ولم يتمكن أصداؤه من زيارته في المستشفى.

راود ربيع النورس خلال غيبوبته حلم غريب. رأى حصاناً أبيض وحيداً، يمشي بين جبال ملونة بالأصفر والأحمر والأزرق، يبحث عن البحر، لكنه لا يجد إليه سبيلاً. كانت الجبال تنلو عليه أبياتاً من الشعر سألت مع ألوانه المتحركة نحو الحصان. ظل الحصان يمشي مرة ويهرول مرة أخرى باحثاً عن البحر. كانت حوافره تدق في رأس ربيع النورس. في اللحظة التي وجد الحصان البحر، استيقظ ربيع ليجد نفسه وحيداً، في غرفة مستشفى.

نظر حوله متعجبًا من الأجهزة والشرائط المثبتة في يده. أحس بصداع شديد في رأسه، وخدر في جميع أجزاء جسده الصغير. شعر بملمس فستان يارا الغريب الأبيض، كأنه يدثره وهو مستلقٍ على سرير المستشفى. لحظتها، دخلت شقيقته أريج التي لم تصدّق ما رأت. سألتها: «أين أنا؟ وماذا حلّ بي؟». ركضت نحوه بلهفة، قبلته من جبينه وهي تقول: «يا حبيبي يا ربيع. يا حبيبي يا ربيع».

عاد بُرهان النورس من غرفة الطبيب، متوجّهًا إلى غرفة ابنه يجرّ قدميه. عيناه منتفختان وحمراوان، ووجهه أزرق، يتنفس بصعوبة ويسعل بقوةً باصقًا البلغم المتجمّع في صدره. خلفه تمشي بيأس زوجته، التي ظلت غاضبة ولا تتكلم معه؛ بسبب رغبته السابقة بإنزال الجنين من رحمها.

نظرت أريج بفرح نحو والديها، عندما دخلا الحجرة. تعجّب بُرهان النورس، وعبس في وجه أريج، لكن سرعان ما التفت نحو سرير ابنه، ووجده مستيقظًا، وينظر إليهم مع ابتسامة صغيرة.

هجمت والدته عليه تجهش بالبكاء، قبلته من رأسه حتى أخمص قدميه، أما والده فخرّ ساجدًا على الأرض، يشكر الله على نجاة ابنه من مصير مجهول، كان يحدّق بهم بعين العقاب.

لم يسمح الطبيب له بالخروج من المستشفى، رغم إلحاح والديه. أراد أن يتأكد من استقرار حالته الصحية، ويقوم ببعض الفحوصات الطبية.

ظلت أريج معه ليلتها في المستشفى، وأخذت تحدّثه طوال الليل عمّا حل به في ذلك اليوم: «لقد وجدك والدي في الحديقة، مغشياً عليك، والقطط من حولك تلعلقك من كل ناحية. دخلت بعدها في غيبوبة طويلة، وبقيت تحت المراقبة في المستشفى». تعجّب عندما وصفت له أريج كيف حمّله والده بين ذراعيه، يبكي خوفًا عليه. كان يعتقد بأن والده قاسي القلب، ولا يحبّه.

كانت العيادة في المجمع السكني مغلقة في الليل. أسعفه والد نبيل، وأخذهم بسيارته إلى المستشفى. كانت أقرب مستشفى تحتاج إلى ٤٥ دقيقة، من منطقة أم النار إلى مدينة أبو ظبي.

سألته أريج: «أين كنت يوم الحادث قبل أن تذهب إلى الحديقة؟». تأمل وجهها ونظر في بؤبؤ عينيها مباشرة، ثم ردّ عليها قائلاً: «ذهبت إلى منزل يارا أبحث عنها، لكنني لم أجدها، وفتح لي الباب...». سكت برهة.

- أكمل يا ربيع، من فتح لك الباب؟

- مشعل العلي.

قال جملة الأخيرة، وهو ينظر في التبدل الذي ظهر على وجه أخته. كان يشعر بأحاسيس شقيقته تجاه الشاب الكويتي مشعل العلي، لكنه يتجاهل ذلك.

أحست أريج بأن الأرض تحتها تتحرك. لظمت الصمت، ولم تتكلم. أطفأت الأنوار في الغرفة، وجلست تتظاهر بالقراءة.

تساءلت في نفسها: «أيعقل أن يكون الشاب الكويتي مشعل العلي، موجوداً معهم في المجمع السكني، ضمن العائلات الكويتية التي استضافتها دولة الإمارات خلال الحرب؟».

لم تصدق أريج كلام شقيقها، خاصة أنه تحت تأثير صدمة غياب يارا الغريب المفاجئ، والأدوية التي أخذها قد تكون أثرت في صحة عقله، وجعلته يهذي بكلام من صنع خياله. غفت وهي تفكر بطريقة تساعد لتأكد من صحة ما قاله أخوها عن وجود مشعل العلي في حيّها.

استيقظ ربيع النورس في منتصف الليل. كانت شقيقته نائمة، وعلى صدرها الكتاب الذي تمسكه بيدها. وجد قربها على المنضدة أوراقاً وقلماً. أراد كتابة الأبيات الشعرية، التي راودته في الحلم،

قبل أن ينساها. انزلت الكلمات من رأسه يخطها بقلم يرتجف بين أصابعه⁽³⁾:

«تأنيك فكرة أنك ستعود .. فيهيم قلبك يعتريه شرودٌ
وتروح في الذكرى تقلب ما جرى .. فيسيل منها دمة وقصيد
هيهات أن يلقي أنينك سامعاً .. هيهات أن يُيدي الوصال عنيد
إني اغترابٌ حين أسأل من هنا؟ .. فيجيب ظلّي لا سواك وحيد!
يا ذا الهوى كن للفراق كجلمد .. يحكي بصبرك كاتب وشهيد
قم صلّ ركعة عاشق متكحلٍ .. بالدمع يذرف إذ حواه سجود
في الحب تكبر فجأة حتى نرى .. أن الحبيب بروحنا مولود
عودي إلي ففي قصيدي فسحة .. أخرى ستكتب حبنا وتعيد
إنا هنا لن ننحني لفراقنا .. ستجئ شمس الحب حين نريد».

* * *

لم يستطع ربيع النورس الذهاب إلى المدرسة؛ فقد أوصى الطبيب بأن يستريح في البيت إلى حين استقرار وضعه الصحي، خاصة وأن بنية جسده الضعيفة، أخرجت من تماثله للشفاء.

جاء نبيل لزيارته وحده. تعجّب ربيع النورس من غياب سليم. طأطأ نبيل رأسه قائلاً بحزن وهو يتنهد: «لقد سمعت والدي بالصدفة، يخبر والدتي، أن سليماً مصاب بمرض عضال ونادر جداً في الأوعية الدموية، سبب له نقص التروية الدموية في الأطراف».

استطرد قائلاً: «وقد تفاقم المرض في جسمه بسرعة، وتحول إلى غرغرينة. فاضطر الأطباء إلى بتر ساقه وذراعه اليسريين، ومن الممكن أن يبتروا ساقه الأخرى».

(3) قصيدة (شروذٌ في ذاكرة الليل) للشاعر محمد أكرم السالم.

نظر كلاهما إلى بعضهما، وصوت من داخلهما ينهش في عقليهما. لا بد أن السومريّ، سلّط لعناته عليهم الواحد تلو الآخر. ربيع النورس صعقته غمامة سوداء مجهولة السبب، وها هو سليم مصاب بمرض عضال، لا علاج له سوى بتر أطرافه. بلع نبيل ريقه وهو يفكر ماذا سيحل له بعد صديقيه؟

تمائل ربيع للشفاء، وتحسّنت صحته مع التزامه بالراحة، وتناول العلاج بانتظام. أخذت شهد موقفاً سلبياً ضد نبيل؛ فقد ألقت اللوم عليه في ما حل بشقيقتها؛ لأنه أخبره عن رحيل يارا الغريب.

لم تعد شهد وعلياء إلى مناكفاتها السابقة. اعتزلت علياء وتوقعت في منزلها. لم يعلم أحد سبب سقوطها في بئر الحزن.

في أحد الأيام، اتّصلت والدة سليم بوالدة ربيع وهي تبكي وصوتها مخنوق. طلبت أن يحضر ربيع ونبيل لزيارة ابنها، الذي ظلّ يسأل عن صديقيه بالحاح.

عندما وصلا إلى منزل سليم، وجدا بوشيه السومريّ، مربوطة بمقبض باب الشقة التي يسكن فيها. نظرا إلى بعضهما، ولأول مرة يشعران بالخوف الحقيقي، يغلي في جوفهما. السومريّ يطاردهم في كل مكان، ويريد أن يؤذيهم.

طلب سليم أن يرى كل واحد منهما على حدة. في البداية دخل ربيع النورس، وقلبه يدق كجرس نحاسي. ابتسم سليم بصعوبة؛ فقد كان الإعياء بادياً على وجهه الأصفر من المرض. سُحّي جسده على السرير كقطعة جليد، لا يقوى على الحركة، وجسمه ملفوف بالأغطية. طلب من ربيع النورس، أن يوصل ظرفاً فيه رسالة إلى علياء، من دون أن يعلم أحد بالأمر وخاصة نبيل؛ لأنه يخجل منه، وطلب منه أيضاً أن يساعده في خلع قلادته الذهبية، التي يتدلّى منها الصليب، ويعطيها لعلياء مع الرسالة.

أراد ربيع النورس أن يستفسر عن طبيعة الرسالة، ولكن من ارتبأكه أثر السكوت. أحس سليم بالأسئلة التي تجول في عقله. قال له بصوت

مخنوق: «علياء حبيبتي، أريدك أن تطمئننيها، وتعطيها الرسالة. أرجوك يا ربيع لا تنس». وأخبره أنه خلال مدة مرضه، لم يتمكن من التواصل معها. هز ربيع النورس رأسه، وقبل سليم من جبينه، متمنياً له الشفاء العاجل، وشرّد يفكر كيف استطاعا أن يخفيا جبهما طوال الفترة الماضية!

دخل بعده نبيل، وجلس قربه. قال سليم: «أنا أعرف مكان يارا!»، سأل نبيل بحماسة: «أين هي؟»، ردّ سليم: «صباح اليوم، سمعت مكالمة هاتفية، تتعلق بباقي إجراءات استقالة والديارا من المصفاة». بلغ ريقه بصعوبة وأكمل: «لكن عدني يا نبيل، ألا تخبر ربيع حتى يتماثل للشفاء التام».

قال نبيل: «أعدك»، قال سليم بصوت متقطّع: «إنها، إنها...»، وزفر أنفاسه الأخيرة، من دون أن يخبره بمكانها.

صرخ نبيل صرخة قوية. هرع الجميع إلى الغرفة. حضنته والدته بين ذراعيها، تضمّه بقوة إلى صدرها. اتصل نبيل بوالده، لكن سليماً، أسلم روحه لبارئها.

ذهب ربيع النورس وصديقه نبيل مع عائلتيهما، لتقديم التعزية لعائلة المرحوم سليم. والدته المنكوبة، أخبرت أصدقاء سليم، أن الله خلق شجرة عليها أوراق بعدد مخلوقاته من الإنس. مكتوب على كل ورقة، اسم كل واحد منا. عندما يحين أجله، تذبل الورقة، وتسقط من الشجرة، إلى أن تسقط جميع الأوراق، وتفنى الحياة.

لمح ربيع النورس علياء شاحبة تبكي بصمت. اقترب منها، وناولها القلادة والرسالة المغلقة بإحكام، هامساً: «هذه الرسالة من سليم». جحظت عيناها، وانقبضت ملامحها. أخذتها منه، وأخفتها بسرعة في جيب فستانها.

بعد أن غادر المعزّون، جلست والدة سليم، أمام صورة ابنها المحاطة بالورود، وأشعلت شمعة. لم تتمالك نفسها، وبكت بحرقه على ابنها البكر. ابتهلت بتراتيل من الكتاب المقدّس، لتصبّر قلبها المفجوع:

«ليس لإنسان سلطان على الروح ليمسك الروح، ولا سلطان على يوم الموت». «حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب، وإلى التراب تعود». «فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها».

بعد حادثة وفاة ابنها، لم تتمكّن والدته من البقاء في الإمارات، حزمت أمتعتها وعادت إلى الأردن. وبعد شهر، عُيّنَت مكانها في العيادة، ممرضة أمريكية شابة اسمها: كريستينا. ستكون البلسم الشافي لقلب ربيع النورس، وتضمّد جراحه في المستقبل.

* * *

أصبحت أريج كثيرة الشرود. تتظاهر بأنها تذاكر دروسها، لكن لا يفارقها في نومها ويقظتها خيال مشعل العلي. تجلس أمام المرأة لساعات طويلة تحدّق في ملامحها، التي أكلتها النظارة الطبية الكبيرة. تلمس بيدها خصلات شعرها المهملة، وأظافرها المتقصّفة.

كان مشعل العلي قد سافر مع والديه، لقضاء إجازة الصيف، في مدينة لندن، ونشبت الحرب وهم هناك. فلم يكن أمامهم سوى خيار اللجوء إلى مدينة أبو ظبي، إلى حين انتهاء الأزمة.

لم تمهلها الأيام كثيراً، كي تفكر بطريقة ترى فيها مشعل العلي؛ فعندما ذهبت مع شقيقتها شهد إلى السوبرماركت، شمّت أريج رائحة تشبه رائحة عطره. استدارت تبحث عن مصدر العطر، ووجدته مع والدته. تبادلوا التحية بحرارة، ولأول مرة يصافحها يداً بيد؛ لتتأجج في داخلها مشاعر اللهفة الأولى. أخيراً، ظهر مشعل العلي، وتبدّدت جميع ظنونها برويته حياً أمامها.

فور عودتهما إلى المنزل، أخبرت شهد والدتها عن لقاءهما بأم مشعل وابنها. زارتها فريال العباسي مع ابنتها. تعجّبوا كيف دارت الدنيا وألتقوا مرة أخرى. لم يخلُ حديثهن عن معارك الحرب، وعلت قلوبهم إلى حناجرهم أسفين على ما حل بالكويت.

جلست أريج بجانب والدتها، وقلبها يدق بقوة، تنتظر أن يأتي مشعل العلي من الخارج. همّت النساء بالمغادرة، وإذ به يدخل البيت. ألقى عليهن التحية. تبسّمت له أريج، وبادلها الابتسامة.

لم تنم أريج ليلتها من فرط سعادتها. في تلك المرحلة أهملت مذاكرتها، وانصبّ كل اهتمامها على مظهرها، إلى درجة لفتت نظر شهد، التي تعلم أن شقيقتها لا تولي اهتماماً سوى لكتبها ودراساتها.

* * *

جاء نبيل لزيارة ربيع النورس، في عصر أحد الأيام، يحمل في يده بوشيه، كانت معلقة على مقبض باب منزلهم. قال نبيل: «أنا التالي!». ظلا صامتين يفكران بخطة السومريّ المقبلة.

سأل ربيع: «هل توجد أخبار جديدة عن يارا؟»، رد نبيل: «لا جديد». لقد أوشك المرحوم سليم أن يخبر نبيلًا بمكان يارا الغريب، لكن القدر لم يمهل. ذهبت روحه وانخطف قبل أن ينطق. استأذن نبيل بالخروج وغادر؛ لأن أسرته تنوي الذهاب إلى شاطئ جزيرة أم النار، مقابل المصفاة، للترويح عن أنفسهم.

كانت علياء شاحبة الوجه، تهذي بكلمات غير مفهومة، اختلطت دموعها بضحكات هستيرية. توقفت سيارة والد نبيل ونزلت عائلته. غطس نبيل في البحر وتبعته علياء. طلب والدهما منهما ألا يتبعدا لمسافات بعيدة داخل البحر، وأن يبقيا قريبين من الشاطئ.

علياء التي كانت مثلاً للفتاة قويّة الشخصية، تبدو الآن مكسورة وضعيفة. تمشي وكأنها نائمة، وتترنح بطريقة غريبة. تغوص أصابع قدميها في طين البحر، رويدًا رويدًا نحو قاعه، وبحركة سريعة مدت جسدها إلى الأمام، وغطست في المياه. ناداها شقيقتها نبيل وحذرًا بأن لا تتبعد كثيرًا.

بالكاد كان يظهر منها شعرها على سطح البحر ثم يغيب. ظل نبيل

يصرخ بأعلى صوته، ويناديها كي تعود. فزع الجميع، وصاحوا بصوت واحد: «علياء!». غطس خلفها نبيل ووالده، لكن الموج كان قويًا، ولم يتمكنوا من السباحة، واللحاق بها. واختفت علياء إلى الأبد.

* * *

عض ربيع النورس بأسنانه على البوشيه، التي وجدوها معلقة على مقبض باب الشقة التي يسكنها نبيل، يوم حادث غرق شقيقته علياء. بكى نبيل بحرقه على شقيقته مذهولًا لما حدث. لقد انقلبت لعبة السومريّ على شقيقته. أحس بالذنب؛ لأنه لم يتمكن من إنقاذها، وابتلعها دوامة البحر.

كان نظره متسمّرًا يحدّق في الفراغ. يسكت قليلاً ثمّ ينفجر بنوبة بكاء حادة دافئًا وجهه في البوشيه، يلعن السومريّ ويتوعّده. قال ربيع: «ما رأيك أن نذهب ونطلب منه السماح؟». رد نبيل بعصبية، ضاربًا الطاولة أمامه، بقبضة يده: «ماذا تقول؟ أنا أطلب منه السماح؟ أريد أن أكسر جمجمته العفنة».

- اصبر يا نبيل. دعنا نفكر في طريقة كي نتقم منه شر انتقام.
- لا، لن أصبر.

* * *

كانت أريج تعيش في عالم، وأشقاؤها في عالم آخر، منفصلة تمامًا عما يمر فيه الجميع من أحزان متتالية. في تلك الأثناء ذهبت أريج إلى منزل صديقتها الشيماء والسعادة تغمرها؛ لأنها ستقابل أخيرًا الأديبة عائشة عبد الرحمن الملقبة بنت الشاطي، ابنة عم والد الشيماء. جاءت إلى مدينة أبو ظبي، لحضور مؤتمر عن المرأة والتعليم، ووعدها الشيماء أن ترتب لقاءً يجمعها بها في أقرب فرصة. كانت أريج معجبة بها جدًا، ورأت فيها مثال المرأة المتعلّمة والقوية والمؤثّرة في مجتمعها؛ حيث

عملت بنت الشاطيء في ثمانينيات القرن الماضي أستاذة في قسم اللغة العربية، في جامعة الإمارات في إمارة العين.

حملت أريج بين يديها دفترًا، تكتب فيه خواطرها وبعض النصوص الثرية، التي تدفقت من مخيلتها، مددق الشاب الكويتي باب قلبها. أرادت أن تأخذ رأي بنت الشاطيء، في أسلوبها في الكتابة. تميّزت كتابات أريج بعاطفة متأججة، لمست احساس بنت الشاطيء، فروت لهما قصة حبها مع الأديب أمين الخولي، وكيف هاجمها الناس واعترضوا على علاقتهما، لكنها وجدت فيه ضالتها، وتمسكت بحبه، وتحذت الظروف رغم نشأتها التقليدية. أعجبت أريج والشيماء بموقفها الشجاع. في نهاية اللقاء أهدت بنت الشاطيء لأريج كتابها (على الجسر، بين الحياة والموت) الذي تحكي فيه عن نشأتها، وكفاحها من أجل النجاح في طريق تعليمها والاستمرار في حياتها العملية.

* * *

انتهزت شهد فرصة انشغال الجميع، كانت والدتها في زيارة إحدى الجارات، أما والدها فيشاهد على التلفاز آخر التطورات السياسية في حرب الخليج الثانية. تسللت من المنزل تحمل صندوقًا، وضعت فيه جميع ألعاب المرحومة علياء. تذكّرت شهد وهي تجمعها، كيف أجبرت نبيل على سرقتها من شقيقته، ليرسلها لها بواسطة سلة قش عبر الشرفة. أرادت أن تواسيه وتطيّب خاطره، بعد حادثة غرقها في البحر، وتكسّر الحاجز الذي نما بينهما، وجعل علاقتهما فاترة. كان هذا الحاجز الوحيد في علاقتهما معًا. استطاعا بعد تجاوزه، أن ينجوا من كل العقبات التي خاضاها في حياتهما المشتركة، في ما بعد.

ركبت شهد في أحد المصعدين، وفي المصعد الآخر خرج شقيقها عائدًا من زيارة صديقه نبيل. دخل غرفته ليختلي بنفسه، يفكر في طريقة تمكّنه من الوصول إلى يارا الغريب في أقرب وقت ممكن؛ فقد اشتاق إليها كثيرًا. وقام يقلّب في الصندوق الذي احتفظ فيه بهداياها.

كان نبيل وحده في المنزل. دقّت شهد الباب بهدوء. رآها من العين السحرية للباب. تردد في لقاءها، لكن قلبه لم يطاوعه، وفتح لها الباب مواربًا. قدّمت له التعزية بصوت يرتجف خجلاً. رد عليها بسخرية: «من المؤكد أنك تشعرين بسعادة كبيرة لا توصف بعد رحيل علياء!». قاطعته بحزم: «نبييل، لا تظلمني. رغم ما بيننا من مشاحنات، لكنني لم أتمنّ لها الموت أبدًا». استطردت قائلة: «أنا أسفة، لقد جعلتك تسرق ألباها. ها هي وضعتها لك في الصندوق، ودعنا نفتح صفحة جديدة بيننا». رد عليها غاضبًا: «لقد خالصمتني، واتهممتني أنني السبب في الحادث الذي تعرّض له شقيقك».

قطع الحوار بينهما جهاز البيجر، الذي كان نبيل يحمله في يده. يضيء ويهتز إشارة على اتصال وارد من والده. قال نبيل: «حسنًا، اذهب الآن، وستحدث لاحقًا. اقترب موعد وصول والدي». عندما أخذ منها الصندوق تلامست أيديهما بدون قصد. سحب يده بسرعة، وأغلق الباب. عادت شهد أدراجها إلى المنزل حزينة، ولأول مرة تشعر بالعاطفة القوية نحو نبيل.



عاشت والدة نبيل مرحلة صعبة، بعد وفاة ابنتها الوحيدة علياء. تتناول المهدئات وتهذي بالكوابيس. حاولت والدة ربيع أن تواسيها، لكنها رفضت أي تعاطف من جاراتها، وحبست نفسها في بيتها، بعد أن تحجبت. مرت عدة أسابيع بعد وفاة علياء، وهي غير قادرة على دخول غرفتها. في مساء أحد الأيام، اشتاقت إلى رائحة ابنتها. أمسكت آخر فستان ارتدته يوم عزاء سليم. سقطت منه ورقة، فتحتها وصُعبت مما قرأته.

كانت رسالة من المرحوم سليم، يقول في نهايتها: «حبيبتي علياء، ما دام ديننا، ومعتقدات أهلينا المختلفة، ستفرقنا عن بعضنا في الحياة الدنيا، فاتبعيني إلى الموت حيث الحياة الخالدة في الآخرة. هناك لن يفرقنا أحد عن بعضنا». فشّت حجرتها بغضب، وذهلّت عندما وجدت الإنجيل في دولابها، وفوقه قلادة سليم الذهبية.

أدركت والدة نبيل، أن ابنتها ساقَت نفسها بكامل إرادتها إلى الموت؛ لتلحق بحبيبها سليم. صُدمت عائلة نبيل بالرسالة. عندما علم ربيع النورس بالموضوع تألم كثيراً، ولم يخبرهم بأنه هو الذي أعطاهم الرسالة، فهو لم يكن يعلم ما كُتِبَ فيها.

* * *

خرج الصديقان مع والدربيع؛ لشراء بعض الملابس من السوق. تغير ربيع النورس كثيراً من يوم حادثة الغمامة السوداء. أطال شعره، وعزف عن ارتداء الملابس الملونة، واكتفى بملابس من أقمشة كتانية أو قطنية بيضاء اللون. امتنع عن أكل اللحوم الحمراء، وأصبح نباتياً. تخلّى عن معظم أشرطة الأغاني الأجنبية: مادونا، ومايكل جاكسون، ومودرن توكنج، وديميس روسوس، واستبدلها بموسيقى كلاسيكية، وأنغام العود الحزينة؛ فلا معنى لكل الأغاني في غياب حبيبته. أزال جميع صور المغنّين والمغنّيات الملصقة على جدران غرفته.

كان نبيل يخفي في صدره بعض الأسئلة، يريد طرحها على ربيع النورس حول رسالة سليم؛ لأنه شاهده في يوم العزاء، يتحدث مع شقيقته. كان لدى ربيع النورس الشعور نفسه، وأسئلة تحوم حول سلة القش، التي كانت تتدلى من شرفته باتجاه شرفة شقيقاته، لكنهما بقيا صامتين، يقود بهما والدربيع سيارته البويك في الطريق إلى حمدان ستر للتسوّق في مدينة أبو ظبي. اتفقا أن يذهبا خلال الأيام المقبلة، لزيارة السومري؛ ليطلبا منه أن يصفح عنهما، ولا ينزل عليهما المزيد من لعناته. بعد التسوّق، ذهبوا وتناولوا وجبة شاورما من مطعم صنين اللبناني. قاموا بعدها بجولة في السيارة، حتى وصلوا إلى كاسر الأمواج، وجلسوا قبالة البحر. كان الطقس لطيفاً والرطوبة منخفضة. بعد الحادث الذي تعرّض له ربيع النورس، تغيّرت معاملة والده له، وأصبح أكثر اهتماماً به. جلس بالقرب منهم شاب أخرج سنارة صيده، وضع فيها الطعم،

وقذفها في مياه البحر. فتح المذيع الذي بحوزته، يطرد ملل الوحدة والغربة، سارحًا بخياله إلى البعيد حيث الأهل والأحباب.

ظَلُّوا يحدِّقون في مياه الخليج العربي، يستمعون إلى صوت الموج المتكسِّر على الصخور، ويتتبعون ببصرهم النوارس المحلقة فوق رؤوسهم. لف ربيع النورس حول عنقه الكوفية التي اشتراها من السوق. تذكر يوم لف الكوفية نفسها حول عنق يارا الغريب في آخر لقاء جمعهما في الحديقة الصغيرة. التفت برأسه نحو والده وسأله: «أبي، حدثني عن وطني، حدثني عن فلسطين».

لم يعرف ربيع النورس فلسطين سوى في صفحات محدودة في مادة التاريخ ضمن منهجهم الدراسي. يحفظ عن ظهر قلب: فتح القدس على يد صلاح الدين الأيوبي، ووعد بلفور، والانتداب البريطاني، وحادثة إحراق المسجد الأقصى، وحربي العام ١٩٤٨ والعام ١٩٦٧، وانتفاضة أطفال الحجارة، و... و... و...

لكن كل كتب التاريخ، لم تشعره بالحنين أو الشوق إلى فلسطين. كلمات جافة، مرصوفة كالبنيان تحجب عنه رائحة زيتون وطنه الغريب عن خياله وقلبه، ومذاق الزعتر الأخضر الطازج، ولون الأرض الخصبة الحمراء، وهواء بحر غزة.

أحس بنفسه غريبًا عن وطن يعرفه فقط بالاسم، والخريطة، والكوفية. لا توجد لديه ذاكرة عنه، ولا حتى من ذاكرة الآخرين. تعمق هذا الشعور بشكل كبير في قلبه، عندما اندلعت حرب الخليج الثانية، وسمع والده يتحدّث بشغف عن العودة إلى الوطن، فلسطين.

كان يريد أن يسمع قصصًا عن مدن فلسطين وقراها، عن عاداتهم في الزواج، عن تراثهم وأهازيجهم ولباسهم، عن فصول السنة الأربعة، عن شتائها وصيفها، عن ثمرها وجبالها ومروجها، وعن السهل والبحر.

سعل والده بقوة ليخرج البلغم من صدره المتقيح. تنهد يفكر من أين

يبدأ بالحديث. عقد يديه أمام صدره، وطأطأ رأسه خجلاً من تقصيره مع أولاده في تعريفهم بفلسطين، وأدرك أنها مسؤولية كبيرة تقع على عاتقه. احتفظ في ذاكرته، بالقصص والحكايا من دون أن يشاركهم فيها مع أنه يعرف أن غربتنا ليست ابتعادنا الجسدي عن تراب الوطن، إنما غربته الروح عنه.

عما فتح والده فمه ليتكلم، علا صوت مذياع الرجل الذي يجلس بجانبهم، وغطى على صوته، لتأتي نغمات موشح للشاعر فؤاد عبدالمجيد: «يا غريب الدار بأفكاري قد تخطر ليلاً ونهاراً.. أدعوك لتأتي بأسحاري بجمالٍ فاق الأقمارا.. الثغر يغمي ويمني والطرف كحيل بتار.. والقلب أسير هيمانٍ ما بين بحور الأشعار».

* * *

انقطعت أريج مدةً طويلة، عن حضور دروس حفظ القرآن، في منزل مس حنان، التي أرادت الاطمئنان عليها وزيارتها بسبب تغييرها المستمر، خاصة وأنها من الفتيات المجتهدات والمواظبات على الحضور.

كانت أريج خلال تلك المدة تلتقي مع مشعل العلي بين العصر والمغرب. كل مرة تخترع حجةً لتذهب إلى بيته. تهديه أشرطة أغاني المطرب المصري إيهاب توفيق والمطرب اللبناني راغب علامة، ويهديها أشرطة أغاني المطرب العراقي صباح اللامي، والمطرب الكويتي عبدالله الرويشد. في كل مرة يختار أغاني تحمل كلماتها مضموناً معيناً، ويسجل لها أيضاً أشعاراً بصوته. ينتظرها صباحاً على شرفة غرفته، قبل أن تذهب إلى المدرسة. وفي المساء تأخذ الهاتف الأرضي خفية عن أعين الجميع، وتتسلل إلى غرفة الضيوف لتحادثه بعد أن تتأكد أن أهلها نيام.

وحده ربيع النورس، أحس بشقيقته التوأم، ولمح أكثر من مرة مشعل العلي على الشرفة يراقبها عند عودتها من المدرسة. كان في حيرة من أمره، فكيف سيحرم الحب عن قلب شقيقته، ويحلله لنفسه! توجهت مس حنان نحو السلالم لتصعد إلى منزل أريج الموجود في

الطابق الأول؛ لأنها تخشى استعمال المصعد الكهربائي. فجأة، تنهى إلى مسامعها صوت ضحكات وهمسات عند الأدراج. خافت مس حنان وارتجفت ضلوعها. قرأت المعوذات وقلبها يدق بسرعة. ترددت ما بين صعود الدرجات أو العودة إلى البيت.

في اللحظة التي أرادت أن تنسحب فيها، سمعت صوت شاب يهمس: «أحبيج.. أحبيج». فارت دماء جسمها وشعرت بأن أذنيها تحترقان، بسرعة صعدت الأدراج لتصل إلى مصدر الصوت. شاهدت مس حنان أريج مستسلمة تمامًا في أحضان مشعل العلي وهو يعانقها بشغف. لقد فُضح أمرهما، وأمام من؟
مس حنان!

صرخت مس حنان: «أريج، ماذا تفعلين هنا؟». تراجعت أريج إلى الخلف مذعورة، وركضت باتجاه بيتها، أما مشعل العلي فانسحب بهدوء ونزل الدرج من دون أن يقول أي كلمة.

ارتبكت مس حنان من الموقف المشين الذي رآته، وعادت إلى منزلها مصدومة ومتألّمة. عند مدخل العمارة كان بُرهان النورس، وابنه، وصديقه قد عادوا من جولة التسوق. تبادلوا معها التحية على عجل.

كان وجه مس حنان يشي بمصيبة. صوتها متحشرج، ووجهها ممتقع. مشت بخطوات سريعة مبتعدة عنهم. أخبر ربيع النورس أمه أنهم رأوا مس حنان عند مدخل العمارة.

تعجبت فريال العباسي من وجودها، وعدم زيارتها لها. ظلّت مس حنان طوال الليل تفكر كيف ستنقذ أريج من خطر يحدق بها، إن هي استمرت في هذا الطريق.

عندما دخل ربيع النورس حجرته، أخرج الورقة التي دَوّن عليها الأبيات الشعرية، التي كتبها بعد أن استيقظ من غيبوبته، ثم طواها

ووضعها أسفل مخدّته ونام. وضع جسده على السرير، وشعر بنفسه
يطفو في الفضاء يبحث عن يارا الغريب.

* * *

لم يرض بُرهان النورس على خروج ابنه وصديقه إلى البحر، لكنه
رضخ لرغبتها ورضي بعد موثّق من التحذيرات والوصايا. حملاً
صنّارات الصيد، وانطلقا صوب السومريّ، إلى المنطقة البحرية أسفل
جسر المقطع. أخذاً معهما سلة فيها ما لذ وطاب. أرادا أن يصفح عنهما؛
حتى يوقف لعناته التي حلّت عليهم بشكل متواتر. كان لا بد من التنازل
قليلاً؛ حتى ينقذا باقي أفراد أسرتهما من الضياع.

أوقد السومريّ ناراً عند مدخل خيمته، تصاعدت منها رائحة البخور.
صوت أهازيج وضرب على الدف يأتي من ناحية الخيمة، رغم أنها
خالية. ارتجف الصديقان، واصطكت أسنانهما من الخوف. زادت شعلة
النار، وعبق المكان بدخان كثيف، كاد أن يخنقهما. أمسكا بيديهما يريدان
الفرار، بعد أن وضعا سلة الطعام على الأرض.

فجأة، ظهر السومريّ قادماً من فوق حصن المقطع، من وسط البحر
نحو خيمته؛ حيث خرج من جوف عجل البحر عبر فمه؛ فقد استطاع من
آثار عظام وجلود عجل البحر-التي سرقها من مدافن أم النار- أن يعيدها
إلى الحياة، بمساعدة القوى الخارقة، لحصانه الأبيض الخشبي المسحور.

وضع بوشيتته على شعره المتدلّي علي جسمه كاملاً. كان يرتدي ثوباً
بنياً مرقّعاً. قال بصوت غريب، رافعاً كفه إلى الأعلى، وقد رسم عليها
خطوطاً وأشكالاً غير مفهومة: «وش تبون؟». بال ربيع ونبيل على
نفسيهما من الرعب، ولم يتمكّنا من الرد. صاح بهما مرة أخرى مكرّراً
سؤاله: «وش تبون مني؟».

قال ربيع النورس وهو يرتجف: «نريد أن تسامحنا. لقد أحضرنا لك
طعاماً كعريون محبة، نرجو أن تقبله، ولكنّ لدينا طلبٌ؟». ظل السومريّ
صامتاً، استطرّد ربيع: «أرجوك، لا تنزل علينا المزيد من اللعنات».

قهقهه السومريّ ضاحكاً مستخفاً بتفاهتهما، أمرهما قائلاً: «قطوا الأكل في البحر، ما أبيه». جثا نبيل على الأرض وشدّ ربيعاً من يده كي يركع معه ويستسمحاه. أمسك السومريّ حفنة رمل، وذرّها في وجهيهما، فدخلت الحبيبات الناعمة في عيونهما، وسعلا بقوة.

قاما بصعوبة عن الأرض، وعندما استدارا للعودة إلى المنزل، قال السومريّ: «ما تبي تعرف وين حبيبتك؟». التفت ربيع النورس ببطء عندما سمع كلامه. شخّص بصره، وتوقفت أنفاسه ليسأله: «هل تعرف أين هي؟».

- طبعاً أعرف.

- أين؟

- أولاً، أحضر لي شيئاً عزيزاً على نفسك.

- لا يوجد أعز من يارا!

- القطة سونيا.

- وما علاقة القطة سونيا بذلك؟

- سوف أحرقها، وعندها ستنطق بلسانها عن مكان حبيبتك.

- هل جنتت؟

- وش تقول! عدّل من كلامك. إذا غيرت رأيك أنا موجود، ولا تنسَ

القطة سونيا.

عاد الصديقان متجهّمين. هل يعقل أن يرسل ربيع النورس القطة سونيا، التي أنقذته يوم الحادث، إلى الموت بيديه؟

* * *

في صباح يوم الجمعة، وعندما بدأت خطبة الصلاة، توجه الرجال إلى المسجد، وعلى غير العادة في مثل هذا التوقيت، دقّ جرس منزل عائلة بُرهان النورس.

وقفت مس حنان قَلِقَةً، تنتظر أن يفتح لها أحدهم الباب. كانت ترتدي جلبابها ذا اللون الخمري. وتضع المنديل الأبيض الكبير على رأسها وتتركه لينسدل على صدرها وكتفها، تتقمط تحته بقمط أبيض قطني. تنتعل حذاء أسود لا يصدر صوتاً؛ لأن ذلك مدعاة للفت نظر الرجال، والوقوع في الفتن والآثام.

رحبت بها والدة ربيع، وأدخلتها الصلاة. عندما سمعت أريج صوتها، ارتجفت ضلوعها واختبأت في غرفتها تحت غطاء السرير. شهد لم تكن تحبّ مس حنان، وتكره الذهاب إلى دروس حفظ القرآن.

ظلتّ شهد تلعب بالدمى في الصلاة، غير مكترثة بالضيقة. توقّعت أريج أن تنادياها والدتها للتحقق من أمر الأدرج الخلفية، ووجودها مع مشعل العلي. قرضت أظافرها مذعورة، تفكّر بالمبرر الذي سوف تختلقه كي يصدقوها. أمسكت رأسها الذي ظلتّ الأسئلة تدور فيه بسرعة؛ هل من الممكن أن تشي بها مس حنان؟ حاولت الاقتراب من الصلاة علّها تستطيع سماع أي شيء، يطمئن قلبها المفزوع.

فمن ذلك اليوم الذي كشفت فيه مس حنان سرّها لم يلتقيا. لقد حاول المسكين أكثر من مرة الحديث معها، وهي عائدة من المدرسة، ينتظرها صباحاً أسفل العمارة وهي تركب الحافلة، لكنها كانت تخشى مس حنان.

تألّم مشعل العلي وأحسّ بالإهانة؛ فامتنع عن مطاردتها؛ لأن كرامته كانت فوق أي إهمال أو تقصير وبالذات من حبيبته أريج.

غادرت مس حنان. تشنّجت أريج، ودعت الله أن يخفّف عنها القادم. دخلت والدتها وشفقت باب الغرفة خلفها بقوة. كشفت بعنف الغطاء عن أريج وصرخت في وجهها: «أريج، هل صحيح ما تقوله مس حنان، بأنك لم تذهبي إلى منزلها لحفظ القرآن، منذ مدّة طويلة».

- كنت أزور صديقتي الشيماء.

- أريج، أخبريني الحقيقة؛ لقد شعرت بالخزي أمام مس حنان.
اعتدت أريج في جلستها، وضمت ركبتيها إلى صدرها، وطأطأت
رأسها. هل من السهل على أريج أن تعترف بالحب لأمها، في زمن كان
فيه الإفصاح عن المشاعر صعباً؟ شدت قميصها القطني القصير لتغطي
ساقها، وكأنها تخفي سرّاً، ثم بكت بحرقة؛ لأنها لا تعرف كيف تبوح
بلواعج قلبها.

هزت أريج كتفيها، لكن الأم ألحّت عليها أن تخبرها عن سبب
تغييرها عن درس مس حنان، وعندما لم تجب، ضربتها كفاً على خدها،
وصرخت بها: «أريج، أين كنت تذهيين؟ أجيبي!».

- إلى حصة مس حنان.

- كذّابة. من اليوم فصاعداً، لن تخرجي إلى أيّ مكان يا أريج حتى
تنتهي امتحانات الثانوية العامة، حتى صديقتك الشيماء لن تذهبي لزيارتها
بتأناً. من البيت إلى المدرسة فقط. وإذا تفاقم الأمر سأمنعك من الذهاب
إلى المدرسة. هل تفهمين؟

أغلقت عليها والدتها باب حجرتها، وأمرتها بعدم الخروج. بكت
أريج مقهورة، قامت من سريرها، وأمسكت جميع مجلات الدعوة،
التي كانت مس حنان تعيرها لطالباتها لقراءتها، ومزقتها إلى قطع
صغيرة. كانت تنفّس عن سخطها على مس حنان بتمزيق المزيد من
أوراق المجلات.

عاد الرجال من صلاة الجمعة. ظل ربيع النورس طوال الصلاة يبتهل
ويطلب من الله سبحانه وتعالى، أن يهديه إلى مكان يارا الغريب.

اجتمعت الأسرة لتناول المقلوبة، لكن أريج بقيت في حجرتها. سأل
عنها والدها، أخبرته شهد أن معدتها تؤلمها، وستأكل لاحقاً. وحده
ربيع النورس كان مطلقاً على قصص الحب المشتعلة بين القلوب،
لكنه يتجاهل ما يرى وما يسمع، وظلّ يحدّق في طبقه ولا يتكلّم.

في الليل، وضعت أريج في جهاز التسجيل، شريط أغانٍ كانت تريد إرساله إلى مشعل العلي لكنها لم تستطع. ضغطت على الزر الخاص بتشغيل الجهاز، وخفّضت صوته، لتأتي ألحان أغنية المطرب المصري مدحت صالح: «حبيبي يا عاشق يا حرزي الطير.. شاوِرح قول حاضر للحب قلب أسير.. الحلم دا حلمنا والحب من حقنا.. مين اللي يمنع طير إنو يطير في السما».

تجرّعت أريج مرارة الفراق، ولوعة نار العشق، لتطفئها بدموع ترقرت من مقلتيها الملتهبتين من القهر. تتأمل صورة مشعل العلي، التي التقطها في رحلته الأخيرة إلى لندن، مدوّناً عليها كلمات الحب، أهداها لأريج في أحد لقاءاتهما السريّة.

* * *

ذهب ربيع النورس إلى مأوى القطّة سونيا في غرفة الحارس الأفغاني. وجد عنده زوج مس حنان. كانا يتحدثان عن الجهاد في أفغانستان ضد الاتحاد السوفييتي، والقائد الجديد للجماعة، أسامة بن لادن.

كان شقيق زوج مس حنان يقاتل في صفوف العرب الأفغان بقيادة الشهيد عبدالله العزام، الذي اغتيل في أفغانستان نهاية الثمانينيات. فبعد تحرير أفغانستان بدأ العزام بتدريب عناصره استعداداً لإرسالهم إلى فلسطين؛ للجهاد مع حماس ضد الاحتلال.

عندما شاهدنا ظل ربيع النورس يحوم في المكان، سكتنا وأغلقتنا الخرائط والأوراق. شعر ربيع النورس بالندالة من التفكير في إقدامه على أخذ القطّة سونيا إلى السومريّ، وعاد إلى بيته يائساً.

* * *

بعد سبعة شهور من الحرب حُررت الكويت في نهاية شهر فبراير العام ١٩٩١. وبدأت العائلات الكويتية التي استضافتها دولة الإمارات، تستعد للعودة إلى وطنها.

مشعل العلي أحب أريج بصدق، ولم يكن يتسلّى بعواطفها. انتظر أن تبادر إلى السؤال عنه، لكن قلبه أصبح خاليًا في غيابها. ظل يشاهد التلفاز؛ ليتتبع أخبار التحرير، والموعد الذي سيُسمح لهم فيه بالعودة إلى وطنهم الكويت.

في إحدى الليالي، جلس مشعل العلي بالقرب من شمعة أوقدها في ظلمة حجرته وأخرج ورقة وقلماً، وأخذ يجتث من خياله أجمل لحظاته مع أريج. ترك القلم والورقة وحدّق بالشمعة التي ذابت كقلبه من الوله.



وصل الصديقان إلى خيمة السومريّ. القطّة سونيا بين يدي ربيع النورس تموء بصوت منخفض وحزين. جاء السومريّ يمتطي ظهر نمرة، وييده رمح برونزي، معلق عليه رأس ثعبان له ناب معقوف إلى الداخل، وعينان مغروس بهما حجران أسودان. يضع على كتفه صقراً ضخماً.

قام السومريّ بعدة طقوس تراجيدية. أشعل النار في الخارج قرب البحر. كان القمر محاقاً، والليل حالك السواد. طلب من ربيع النورس أن يحضر من خيمته بوشيه؛ ليرتديها على رأسه في أثناء العملية. عندما دخل خيمته، لمعت أمام عينيه قطع الآثار، التي سرقها السومريّ من مدافن أم النار القديمة.

وبدأت العملية.

عصر السومريّ بقبضة يده عنق القطّة سونيا بطريقة وحشية وهو يصك على أسنانه من شدة الضغط عليها. قفزت الكرة الزجاجية من عينها اليسرى مختلطة بالدم والدمع، وتدحرجت على الرمال حتى وصلت عند حافة قدم ربيع النورس، وبالعين الأخرى نظرت إليه نظرة وداع وعتب، ولفظت أنفاسها مستسلمة.

انهار ربيع النورس باكياً. خارت قواه، ونزل بركبته على الأرض.

صرخ فيه السومريّ أن يفتح عينيه ويقف فوراً. كره ربيع النورس نفسه الشريرة الحمقاء، عندما اعتقد بأن السومريّ بهذه الطريقة الجهنمية، سيجد له حبيبته. أما نبيل فوقف بعيداً عن مكان الجريمة الشنيعة، مغمضاً عينيه.

قذف السومريّ القطة سونيا في النار. صاح نبيل به: «أين يارا؟». قهقه السومريّ بطريقة هزّت جسده، وتحركت على إثرها الأصداف المعلقة على صدره، محدثة خشخشة. قال وهو يضع بوشيته على رأسه: «هل صدقتما أن القطة ستنتطق، وتخبرنا بمكان البنت!».

- هل كنت تكذب علينا؟

- بل كنت أسخر منكما أيها التافهان. ثم نظر إلى ربيع وأضاف: «لقد ضحيت بالقطة التي أنقذتك، وقتلتها بغبائك. لأنك لا تعرف معنى الوفاء والصدقة».

خرج دخان أسود من ثياب السومريّ، ولم يعودا قادرين على رؤيته. سعلوا بقوة، وغشيهما الدخان، وفرّوا عائدين أدراجهما متسربلان بالعار والخزي، جرّاء فعلتهما المشينة.

* * *

أصبحت أريج شاحبة اللون، ذابلة الجسم، كئيبة الروح. عيناها منتفختان من البكاء ليل نهار. اعتزلت الحياة بعد أن منعتها والدتها من الذهاب إلى أيّ مكان بمفردها. هدّتها بإخبار والدها، الذي سوف يمنعها بدوره من الذهاب إلى المدرسة؛ إن هي فكّرت بارتكاب أيّ حماقة.

خاضت أريج حرباً نفسية، بعد فراق مشعل العلي. الحصار الذي عاشت فيه تسبّب لها بضغط على أعصابها. فجأة، وبلا سابق إنذار فقدت الوعي، ونقلها والدها إلى طوارئ عيادة المجمع السكني. نقلوها إلى عيادة المجمع حيث تبين أنها تعاني من ضعف تغذية،

فأعطوها الغذاء في الوريد. في أثناء ذلك دخلت والدة مشعل العيادة؛ لعمل بعض الفحوصات الطبية. سمعت أريج صوتها وهي تلقي التحية على الممرضة. تساءلت أريج في نفسها: «يا ترى هل مشعل معها؟».

ظلت الهواجس والأسئلة تطحن قلب أريج. تفكر في احتمال أن تراه مع والدته. لا يعقل أن يكون تركها تأتي وحدها وذهب؟

ذهب والد أريج ليحضر نتيجة التحاليل الطبية من المختبر. تنهدت وأغلقت عينيها تسترجع في خيالها ملامح مشعل العلي؛ عيونه وضحكته وكلامه.

قطع عليها خيالاتها صوت ينادي عليها: «أريج.. أريج»، كان الصوت مألوفاً لأذنيها. هل إلى هذه الدرجة استطاعت أن تسمع صوت مشعل العلي في خيالها! وتشعر بذبذبات حنجرتة وروحه الدافئة حولها!

الصوت بدأ يعلو ويقترب من أذنها أكثر وأكثر قائلاً: «أريج، افتحي عينيك». وقف مشعل العلي قربها مستغلاً غياب والدها والممرضة. كانت مشاعره تتأرجح بين الحب وعزة نفسه، لكنه حسم أمره واستجاب لطلب قلبه، وجاء إليها يطمئن على وضعها. وقبل أن يغادر أمسك يدها ووضعها على قلبه لتسمع نبضه الأخير. كان يتلفت خوفاً من أن يأتي أحد في أي لحظة، ثم همس قائلاً: «أريج حبيبي، غداً سنسافر إلى الكويت. اعتني بنفسك. أحبيج وايد».

غادر مشعل العلي مسرعاً وهي لا تزال تمد يدها نحوه، لكنها لم تجد سوى الفراغ والسراب. لم تكن تصدق أن مشعل العلي كان يقف أمامها، استنشقت عبيره على يدها لتتأكد أنها لا تحلم، وبكت على حباها الهارب إلى الأبد.



ظل ربيع النورس يبحث عن حبيبته ولم يستسلم. استطاع نبيل أن يسأل ويتحرى من الجيران، عن مكان سكن عائلة عاهد الغريب، والديارا.

في يوم الخميس وبعد انتهاء اليوم الدراسي، ركب الصديقان المواصلات العامة، متوجهين من إسكان موظفي مصفاة أم النار إلى مدينة أبو ظبي. لم يكونا على دراية بالشوارع والمناطق، وظلا في حيرة من أمرهما. عادا خائبين ولم يتمكنّا من الوصول إلى منزلها.

طلبا من صديقهما في المدرسة، جاسر الخاتم مساعدتهما؛ فشقيقه إبراهيم يملك سيارة، ويعرف شوارع المدينة جيدا، وبإمكانه أن يساعدهما بالوصول إلى الشارع المطلوب.

بعد انتهاء اليوم الدراسي، لم يعودا إلى البيت. كانت سيارة إبراهيم الخاتم تنتظرهما عند باب المدرسة. انطلقوا إلى وجهتهم في شارع إلكترا، حيث دوّن ربيع النورس عنوان العمارة على ورقة صغيرة أعطاها لإبراهيم، الذي هزّ رأسه علامة أنه يعرف المكان.

جلس إبراهيم الخاتم خلف مقود السيارة الفارهة، يرتدي ثوبا عربيا أبيض اللون، وعلى رأسه الشماخ والعقال، ويضع في معصمه ساعة فاخرة. كان يبدو في مظهره ولباسه كالخليجين، متماهيا مع المجتمع المحلي.

سافر إبراهيم إلى الإمارات في بداية الثمانينيات. عمِل في بادئ الأمر حمّالاً في الميناء، ثمّ بائعاً للخضار في السوق المركزي، وأخيراً مندوب مبيعات. كان مصروفه أكبر من مدخوله، فلم يكن راتبه يكفي؛ فيستدين من أصدقائه الذين ضجروا منه، لأنه كان يبذّر نقوده في الحانات وشرب الكحول كل ليلة. في إحدى المرات التي زار بها الضفة الغربية، عرض عليه أحدهم حقيبة نقود كبيرة مملأى بالدولارات. سال لعبه ولم يصدّق، وعندما سأل عن المقابل، أخبره الرجل بنبرة متعالية: «بدنا معلومات». تحوّل إبراهيم الخاتم إلى رجل يرخي أذنيه في كل مكان ليسجل المعلومات، ويقبض مقابلها النقود. ومنذ ذلك الوقت عاش حياة مرفّهة على أنقاض مستقبل الأبرياء.

من إشارة إلى إشارة ومن شارع إلى شارع، وصلوا أخيراً إلى المكان المقصود. نزل ربيع النورس من السيارة بسرعة ولحقه نبيل، وتوجّها إلى مصعد العمارة. سأل نبيل وهو يلهث: «ربيع، ما الحجة التي سنقولها لوالديّ يارا؛ لنبرر وجودنا هنا؟» ردّ عليه مبتسماً: «لا تقلق».

علم ربيع النورس بعد التحريّ والسؤال، أن والد يارا عالق في مشكلة كبيرة ترك على إثرها عمله في الشركة، وقدّم استقالته إلى حين الانتهاء من التحقيقات؛ حيث فقدت بعض الآثار من مدافن أم النار، خلال المدّة التي كان يعمل فيها هناك بالبحث والتنقيب مع البعثين الدنماركية والعراقية، ولفقت له التهم.

فقد شاهد ربيع النورس بعض القطع المنشورة على الأرض في خيمة السومريّ يوم قُتلت القطعة سونيا، تشبه القطع الأثرية التي رآها في أحد كتب والد يارا عندما حدّثه مرّة عن عمله في الآثار، وعندما علم ربيع بمشكلة والد يارا تسلّل إلى خيمة السومريّ وهو غائب وسرق القطع؛ كي يعطيها لوالد يارا عندما يتوصّل إلى مكان سكنهم الجديد في أبو ظبي.

* * *

أثناء غياب ربيع النورس عن المنزل، عاد والده من ودية عمله في المصفاة. سأل أهل البيت عن ابنه. شهد تعلم أن ربيعاً ذهب مع نبيل إلى المدينة للقاء حبيبته المفقودة. طلب نبيل منها الإذن للخروج معه؛ حتى لا تعود وتخاصمه كما حدث في المرة السابقة، وطلبت منه الاعتناء بشقيقها. لزمت شهد الصمت ولم تخبر أحداً. جلست في حجرتها أمام التلفاز تقلّب قنواته، تبحث عن المسلسل المكسيكي الذي تتابعه. ظهرت على الشاشة الفضية لتلفزيون أبو ظبي، المذبة سميّة الزاجي بكامل جمالها وأناقتها، تضع على رأسها شالاً أسود شفافاً فوق تسريحة شعرها. خالطت شهد مشاعر الغيرة لعظمة الحب الذي يكنّه شقيقها لابنتها. وفي الوقت نفسه تمنّت أن يعود شقيقها إلى طبيعته بعد أن يجدها؛ فقد تغيّر كثيراً من يوم فراقها، وأصبح كثير الشرود وعازفاً عن كل شيء.

أريج ظلّت في غرفتها تتظاهر بالمذاكرة، وتجتزّ ذكرى وداع مشعل العلي في العيادة قبل عودته إلى الكويت بعد تحريرها. في تلك الأثناء كانت والدة ربيع تجلس في غرفتها شبه المظلمة. تطوي بسرعة ورقة صغيرة بين ملابسها الداخلية، وتحاول إخفاءها عن الأنظار. فقبل يومين زارت الطبيبة النسائية - من دون أن تخبر زوجها- وفحصت الجنين بواسطة جهاز السونار لتعرف جنسه. كم تمنّت أن ترزق بمولود ذكر. تجرّعت مرارة النتيجة التي احتفظت بها لنفسها؛ فهي غير قادرة على مناكفة زوجها، خاصّة وأن موعد ولادتها اقترب.

لم يجب أحد برهان النورس، الذي ظلّ يلحّ بالسؤال عن ابنه. أصبح يخاف عليه كثيرًا بعد الحادث المشؤوم، ويتوتّر إذا طال غيابه. كل فرد في العائلة غارق في أفكاره وهو اجسه. وعندما لم يلتق أي رد بعد أن كرر سؤاله عن ربيع، رفع صوته فانتفضوا من أماكنهم وكل منهم راح يبرّر بأنه لم يره ولا يعرف أين هو.



دقّ ربيع النورس باب الشقة المدوّن رقمها على الورقة. حمل بيده كيسًا فيه بعض الآثار التي سرقها من خيمة السومريّ يوم علّم بمشكلة والد يارا، ووضع يده الأخرى على صدره، يخشى أن يقع قلبه من بين ضلوعه من الفرح؛ لأنه سيقابل أخيرًا حبيبته.

فتحت الباب فتاة أجنبية. تراجع للخلف واعتذرا منها؛ فقد أخطأ في رقم الشقة. في تلك الأثناء كان باب الشقة المقابلة يفتح بهدوء. خرج والد يارا مع ابنته، وركبا المصعد. استدار الصديقان نحو المصعد الكهربائي، وضغطا على زرّه بسرعة؛ لإيقافه قبل أن يغلق بشكل نهائي. أخيرًا، تلاقت الأرواح الضائعة.

لكز نبيل صديقه بكوع ذراعاه؛ ليتدارك حالة الدهشة التي جمّدت أوصاله، لحظة أطال نظرات الشوق إلى يارا الغريب بعد أن ألقوا التحية وسكتا.

تعجّب عاهد الغريب من وجودهما في هذا الوقت خارج البيت. رفع ربيع النورس الكيس الذي يحمله أمام وجه والد يارا، وأخبره بقصة محتوياته. أمسك والدها الكيس، وفتحه غير مصدق أنه وجد دليل براءته، شكره بحرارة وأثنى عليه، وربّت على كتفه ليحيّي فيه شجاعته. اعتقد عاهد الغريب أن وراء اختفاء الآثار الفتاة البدوية، حمده. عشقته بجنون وحاولت أن توقعه في حبها، لكنه خشي من والديها إن عرفا بأمر تردّدها على موقع عمله في المنطقة الأثرية وما قد ينتج عن ذلك من عواقب.

جاست نظرات يارا الغريب وجه حبيها. لقد تغيّرت ملامحه، وبدت بعض الهالات السود حول عينيه. لاحظت ملبسه البيضاء الكتانية الجديدة، وشعره الطويل المربوط إلى الخلف.

طلب ربيع من والديا راقم هاتف منزله؛ حتى يتمكن من إخباره بأي معلومة يتوصّل إليها حول الآثار المسروقة. رحب بالفكرة، وأعطاهما رقم هاتفه الأرضي الجديد.

عندما خرجوا جميعاً من باب العمارة، كان إبراهيم الخاتم يراقبهم وهو جالس في السيارة. لمعت في عينيه يارا الغريب كدانة متألّئة، وأخذ يدقّق بالورقة المدوّن عليها اسم والدها.

لا يمكن أن تكتمل السعادة في يوم واحد. كان بُرهان النورس يتوعّد لابنه ربيع، ونار الغيظ تغلي في رأسه، وفي الوقت نفسه كان خائفاً عليه من أن يصيبه مكروه. عندما دخل البيت دار بينهما شجار كادت والدته أن تسقط حملها، وهي تحاول الفصل بينهما. بعد انتهاء الشجار، تسلّلت شهد إلى غرفة شقيقها، تريد أن تطمئن على مغامرته. ابتسم لها بالنصر، واتفق معها على خطة جديدة.

* * *

اقترب موعد تقديم امتحانات الثانوية العامة. بدأت أريج تتعافى تدريجياً من حب حياتها، مشعل العلي، الذي أشعل نبضها بنار توهّجت في رمال عمرها المتحركة، وأطفأته أمواج بحر الحياة بأحداثها المتقلّبة.

قرّرت استعادة نشاطها والتركيز على دروسها لتضمن النجاح، متحدية مناكفات والدتها الساخطة عليها التي كانت تسخر منها كلما شاهدها تدرس بجِدٍّ، وتقول لها متهكّمة: «غداً، ستعلّقين الشهادة على أحد جدران مطبخ بيت الزوجية».

استعان ربيع النورس بحيلة للدراسة مع معلم في مدينة أبو ظبي؛ ليتمكّن من رؤية يارا الغريب، ولا يحاصره والده بالأسئلة كلما خرج من البيت. كانت شقيقته شهد تجري المكالمات الهاتفية لتنسيق المواعيد معها.

يلتقي أربعتهم كل مرة في مكان جديد في المدينة بعدما ينتهي ربيع النورس وصديقه نبيل من حصة الدرس الخصوصي. نقطة التجمّع الرئيسية عند نافورة الدانات الأربع بالقرب من الكورنيش.

توطّدت مع الأيام علاقة ربيع النورس مع والد يارا الذي استطاع أن يحصل على البراءة من جميع التّهم التي وجهت له بخصوص الآثار المسروقة من مدافن أم النار الأثرية.

في أول لقاء لهم ذهبوا إلى النادي السياحي. مشى ربيع النورس بالقرب من يارا الغريب. تسلّل الشوق من بين أصابعه ليشد على أصابعها، سألها ونار العتب تأكله: «لماذا لم تبلغيني قبل مغادرتكم المجمع السكني؟». تنهّدت وهي تخبره أن رحيلهم جاء بسرعة نظرًا للأوضاع الصعبة، التي كان يمر بها والدها، خاصة أنه منعها من التواصل مع أي أحد لحين انتهاء التحقيقات. قصّ عليها ربيع النورس ما تحمّله وما قام به حتى تمكّن من الوصول إليها، كما حدّثها عن المرارة التي تجرّعها بسبب غيابها المفاجئ.

استغل نبيل انشغال صديقه مع حبيبته، وطلب من شهد أن يتجولا داخل مرافق النادي بحجة إعطاء شقيقها مساحة من الحرية. بدأت أحاسيس شهد تجاه نبيل تتغير من الرفض إلى الإعجاب والقبول، وشعر نبيل بأنها سعيدة بصحبته.

في نهاية الأسبوع، وبعد انتهاء الدوام المدرسي يوم الخميس، ذهبوا إلى صالة التزلج القريبة من استاد مدينة زايد الرياضية، تزلجوا على

الجليد، وتناولوا طعام الغداء، وقضوا وقتًا ممتعًا. عندما غادروا الصلاة، وقفوا على ناصية الشارع ينتظرون سيارة أجرة. مرت بالصدفة أمامهم سيارة والديارا. توقف مستغربًا؛ لأن ابنته لم تخبره أنها ذاهبة إلى صلاة التزلج برفقة ربيع النورس وأصدقائه. أخذهم بسيارته وهو غاضب لا يتكلم معهم. لم يرص والدها عن تصرفها واستغلال ثقته وحبها لها. لامت نفسها لأنها أخفت عن والدها أمر خروجها معهم.

بعد أن هدأت الأمور بين يارا الغريب ووالدها، ذهبوا أربعتهم إلى مهرجان تسوق في أرض المعارض، حيث تعرض فيه الكثير من البضائع من جميع أنحاء العالم. شاركت بعض العلامات التجارية التي أسسها التاجر الهندي راو موهان؛ فقد أكمل أبنائه وأحفاده الطريق من بعده في مجال التجارة بنجاح متصاعد. انضموا إلى الحفل الغنائي للفنان الليبي حميد الشعاري يشدو بأغاني ألبومه الأخير على المسرح الكبير لقاعة المعرض. أثناء تجولهم في المعرض، وجدوا صورة كبيرة لرجل ياباني، يمسك صدفة لؤلؤ. اقتربوا من المنصة يستفسرون عن نوع البضاعة التي يبيعونها. استمعوا للبائع الذي شرح لهم عن ابتكار زراعة اللؤلؤ في الأصداف، على يد رائد الأعمال الياباني ميكيموتو كويتشي، ولكنهم في منتجهم الذي يعرضونه، يحاكون قطع ميكيموتو باهظة الثمن. أخرج البائع صدفة من حوض كبير أمامهم، فتحتها وأخرج منها حبة لؤلؤ ولكنها غير تامة الاستدارة. لاحظ ربيع النورس انجذاب يارا الغريب إلى قرطين صغيرين من اللؤلؤ، لكنه لم يكن يحمل مبلغًا كافيًا لشرائهما.

تدبر ربيع النورس ثمن القرطين اللؤلؤيين. أخذ من شقيقته أريج بعضًا من النقود التي جمعتها في العيد الماضي، وأكمل المبلغ من والده بحجة الدروس الخصوصية.

في اليوم التالي، ذهب مع نبيل واشترى القرطين، ثم طلب من البائع أن يحضر على قاعدتهما، أول حرفين من اسميهما بالحروف الإنجليزية. وضعهما في علبة مخمل حمراء وذهبا إلى لقاءهم المنتظر عند نافورة البركان، مقابل كورنيش أبو ظبي.

جلس ربيع النورس ويارا الغريب منفردين على أحد المقاعد، أخرج العلبة الحمراء وفتحها أمامها. فرحت بالهدية، وطلب منها أن تتزيّن بالقرطين دائماً، فهكذا يبقى يهمس لها بالكلام الجميل في أذنها. أفضى لها عن نيّته خطبتها بعد انتهاء امتحانات الثانوية العامة، وأخبرها أنه صارح أهله برغبته في ذلك. خجلت، ونظرت إليه نظرة رضا وقبول.

أخرج من جيبه الورقة التي كتب عليها القصيدة الوحيدة، وقرأها على مسامعها. أعجبت بكلماته وهدوئه، ورقة قلبه وحساسيته، وشعرت بأنها ملكت الدنيا. ظل ربيع يهمس ليارا بكلمات تنقلها إلى عوالم من الحب لم تعرفها من قبل، مع أنها تلقت من والديها حباّ ملاً حياتها. لكن مشاعرها هذه المرة كانت مختلفة. فجأة، علا صوت نافورة الماء، نظرت يارا الغريب إلى حبيبها، ثم وضعت يدها على كتفه، وقالت له همساً: «بحبك».

* * *

في أحد المساءات الحزينة، كان عاهد الغريب متجهماً، وجهه أسود، وممتقع من الكدر. كانت زوجته سميرة الزاجي، في استديو التلفزيون. ظل ينتظرها وغصّة في روحه تكاد تخنقه. دُعرت زوجته عندما رأته على هذه الحال. جلسا في عتمة غرفتهما، حدّثها عاهد الغريب بأمر خطير. شخصت ببصرها إليه لا تصدّق ما يقول، وبكت حتى ذاب قلبها قهراً وغماً.

مضت عدة أيام، وشهد تحاول الاتصال بيارا الغريب، لكن لا أحد يجيب على الهاتف، وفي آخر مكالمة صرخت والدتها في وجهها، وطلبت منها عدم الاتصال مرة أخرى، وأغلقت سماعة الهاتف.

* * *

جاء نبيل يحمل بيده بطاقة دعوة من زميلهما في المدرسة جاسر. أخير ربيع النورس أنهما مدعوان لحفل زفاف شقيقه إبراهيم الخاتم، الذي ساعدهم في البحث عن يارا الغريب. رفض ربيع النورس الدعوة؛ فقد كان الهمّ كالجبل على رأسه، يفكر في سبب غياب حبيبته مرة أخرى.

تحت إصرار نبيل وافق ربيع النورس وخرج إلى الحفل بثقل. اجتمع المدعوون في بهو فندق الهيلتون المطل على الكورنيش، ينتظرون موكب العروسين. وقف ربيع النورس مرهقاً من التفكير، ومنتفخ الجفنين، ينظر إلى الناس حوله بضجر وسأم.

وصلت سيارة العروسين المزينة بالأزهار، نزل العريس إبراهيم الخاتم أولاً، وبدأت الزفة تعزف الألحان على الطبول والمزامير، والشباب يشدون الأهازيج الفلسطينية ابتهاجاً بهما، ويلوحون بالكوفيات من على أكتافهم وهم يخبطون أقدامهم على الأرض بالرقص. فتح العريس باب السيارة لعروسه. كان الجميع يترقب خروجها عندما سبقها طرف فستانها للظهور من الباب، وبقافة الورد في يدها تخفي وجهها.

كانت نظرات العريس الحقير نحو ربيع النورس فيها من اللؤم ما يكفي ليغمر الأرض، بتسونامي الندالة. تسارعت الأسئلة في رأس ربيع المصدوم، متى وأين وكيف ولماذا؟ وسقط فاقداً الوعي وسط جموع المدعوين، لحظة خرجت يارا الغريب من السيارة؛ لتتأبط ذراع عريسها. في اليوم التالي، ذهب ربيع النورس إلى المدرسة، والنيران تشتعل في قلبه. بحث مع نبيل عن جاسر الخاتم في ساحة المدرسة، ووجداه في الزاوية يقف مع مجموعة من الشباب.

انتظرا نهاية الدوام، وبعد أن غادر الطلاب والأساتذة، وجداه في دورة المياه وحده. أغلقا عليه الباب، وأنها لا عليه بالضرب المبرح. لم يتمكن من الدفاع عن نفسه؛ فقد خارت قواه من شدة اللكمات، وسقط على الأرض والدماء تنزف من أنفه. تركاه كالجثة بعد أن حذراه من أن يشي بهما.

* * *

فتحت أريج المذياع ترتجف ضلوعها قلقاً وتوترًا، تُنصت بكل حواسها إلى نتائج امتحانات الثانوية العامة. كانت تبث الإذاعة الرسمية أسماء الناجحين قبل إعلانها في الصحف الرسمية. في البداية أُذيعت أسماء الناجحين من مدارس الذكور تلتها مدارس الإناث. لم يُبالِ ربيع

النورس بنتيجته، ونام تلك الليلة في سريريه البارد على الرغم من الحمى التي اجتاحتها.

عندما تلا المُذيع اسم أريج مقروناً بمعدلها، صرخت من الفرح. حضنت شقيقتها شهد بقوة ووقعتا على الأرض. لكن فرحة نجاحها لم تكتمل، ففي مساء يوم ظهور النتائج اجهضت والدتها؛ بسبب التفاف الحبل السري حول عنق الجنين.

* * *

ذات يوم ساقَت الأستلة قدما ربيع النورس إلى منزل والديارا. أراد أن يعرف السبب الحقيقي الذي دفعه ليزوج ابنته من إبراهيم الخاتم. وقف عند عتبة باب الشقة ورفض الدخول. أجابه والدها وهو يتلعثم في كلامه، وغير قادر على النظر في عينيه: «لأنك تحمل وثيقة مؤقتة، بينما إبراهيم يملك جواز سفر دائم. أريد أن تعيش ابنتي حياة مستقرة؛ لأن الحب والحنان لن يطعماها خبزاً».

لم يعلّق ربيع النورس على كلامه الذي رآه خالياً من الإنسانية والعطف الحقيقي، ولم يعد يهّمه أن يستمع إلى كل الحماقات التي راح يبرطم بها، ورحل غاضباً بعد أن قال لوالديارا أنه سيندم على ما فعله بابنته.

لم يكن والديارا يحتاج إلى كلمات ربيع النورس، كان الندم قد سبق مجيئه. أغلق عاهد الغريب الباب، وضع رأسه عليه، وبكى مقهوراً على ابنته الوحيدة التي لم يستطع حمايتها.

وراح يتذكر عندما جاء إبراهيم الخاتم لزيارته ذات يوم نحس، وبيده صورة شقيقه طه الغريب. وعاد بذاكرته إلى يوم رفض شقيقه السفر من غزة، ثم تفاجأ به يغيّر رأيه ويوافق ليلتحق بعمله الجديد في دبي. أحسّ بأن وراء تغيير رأيه شقيقه سرّاً انكشف أمامه بعد مرور سنوات، ودفعت ثمنه ابنته الغالية على قلبه.

* * *

نجح ربيع النورس في امتحانات الثانوية العامة، ولم يكن قد قرّر ما هي الخطوة التالية. صديقه نبيل قرر السفر إلى لبنان، لدراسة الطب. قبل سفره ذهباً إلى العيادة؛ ليجري نبيل بعض الفحوصات الطبية. استقبلتهما الممرضة الأمريكية كريستينا، ورحّبت بهما. لحظتها لمعت فكرة في رأس نبيل.

كريستينا، فتاة تحمل دائماً ابتسامتها على وجهها الناعم. هادئة وقليلة الكلام. تعلّمت بعض الكلمات العربية البسيطة، وتشعر بالسعادة عندما ترى ردّة فعل الناس لطريقة لفظها الحروف العربية بلسان ثقيل. كان يزورها بين الحين والآخر شقيقها المجدد في فرقة مشاة البحرية الأمريكية (المارينز)، فبعد مشاركته مع قوات التحالف في حرب تحرير الكويت، التحق بالعمل في القاعدة العسكرية الأمريكية، التي أنشئت في مدينة أبو ظبي.

اقترح نبيل على ربيع النورس أن يتعرّف إلى كريستينا ويتزوّجها؛ فتمنحه الجنسية الأمريكية وجواز السفر، الذي سيحل مشكلاته مع وثيقة السفر المؤقتة. غضب منه ربيع النورس مستهجناً الفكرة، وامتنع عن الحديث معه. حاول نبيل أن يقنعه بأن الأمر بسيط ولا يحتاج إلى كل هذا التعقيد.

التزم ربيع النورس المسجد، وكلما رُفِعَ صوت الأذان بالتكبير عالياً، دعا الله أن يهديه إلى الصواب، وأن يزيل من قلبه دفتات حبه ليارا الغريب، ولا يعود يشتاق إلى وجهها وضحكتها. كان يبحث عن ظلّها بين العمارات والأشجار والرمال، يحمل دموعه إلى البحر ويلقيها فيه، علّه يعيد له حبيبته داخل صدفة لؤلؤ. فحبّها يعذبّه ويكويه، كلما راودته صورتها وهي ترتدي فستان زفافها، وتتأبّط ذراع الخائن إبراهيم الخاتم.

طال شعر لحيته كثيراً، وتحوّل محيط عينيه إلى بقعتين سوداوين من أثر السهر والحزن. أنفّت نفسه من الدنيا وزخرفها الباهت. وتساقطت ملذات الحياة، وجوازات السفر البائسة، والشهادات العلمية، وكل النساء من حساباته.

طلب نبيل من شهد أن تقنع شقيقها بفكرة الزواج من الممرضة
كريستينا، لكنه ظل رافضاً للفكرة، ولا يريد أن يتواصل مع أحد.
ولكن هل سيقى على رأيه عندما تصله رسالة من يارا الغريب،
بواسطة شقيقته شهد تقول له فيها «إنساني يا حبيبي».
أعتقد يا ربيع النورس أن مشوارك انتهى؟
لا يا عزيزي.
الآن، ستبدأ الحكاية.

النَّارُ الثَّلَاثَةُ

(٩)

الولايات المتحدة الأمريكية (شهر إبريل - شهر أغسطس / العام ٢٠٠١م)

مدينة نيويورك

منطقة منهاتن

برعم رقيق سيشرق قريباً. يزهر على غصن خشبي لشجرة الكرز. تأمله كثيراً يا ربيع النورس. وتأمل معه الحياة. ففي هذا العام ستتغير خارطة حياتك. زهرة تلو زهرة. غصن فوق غصن. شجرة بعد شجرة. الحياة يا ربيع النورس عابرة وزائلة مثل عُمر زهرة الساكورا القصير التي ستزول مع آخر نسيمات الربيع. تجاوز أحزانك فلا شيء يدوم.

مع بداية فصل الربيع في شهر مارس وحتى منتصف شهر إبريل، تُقام احتفالات مشاهدة تفتح أزهار الساكورا، في عدة مناطق في الولايات المتحدة الأمريكية. يخرج الناس للتنزه في الحدائق، ويستمتعون بالمنظر الفاتن للطبيعة والحياة. يتناولون الطعام، ويحتسون شراب (الساكي) تحت ظلال الأشجار التي تشابكت أغصانها وصنعت غيوم وردية عذبة من الأزهار.

فقد أهدت اليابان ٣٠٠٠ شجرة كرز لأمريكا، بهدف تنمية روابط الصداقة بين البلدين. وأهدت ٢٠٠٠ شجرة أخرى للصين، علماً أن طقوس الاحتفال عادة صينية الأصل، أُدخلت إلى الثقافة اليابانية في العصور القديمة؛ للإعلان عن بداية موسم زراعة الأرز.

سافر ربيع النورس مع زميله في العمل توني موهان -أحد أحفاد التاجر الهندي راو موهان- إلى العاصمة واشنطن، قادمين من مدينة نيويورك لمشاهدة احتفال تفتح الأزهار. تجول الصديقان في الحدائق المزروعة بأشجار الكرز في صفوف متتالية.

التقط صديقه الهندي بعض الصور الفوتوغرافية له مع الأزهار الأولى، يحاول أن يساعده ليغير مزاجه، ويتخلص من أحزانه، ينفذها عن قلبه الذي تسربل بالكآبة، منذ وفاة زوجته، الممرضة الأمريكية كريستينا، بمرض سرطان الثدي.

لم يصدق أنها رحلت مع جنينها في شهره الثالث، وتركته وحيداً وغريباً، تقطر الحسرة والألم من قلبه المفجوع. أحبّها بصدق وأخلص لها، وبادلتها بدورها الحب والعطاء؛ رغم أن سبب إقدامه على الزواج منها كان بدافع الحصول على الجنسية الأمريكية؛ لأن الحياة أمامه توقفت أمام وثيقة السفر المؤقتة، التي جعلته كالرقم المجهول وبلا ملامح واضحة.

بعد زواجه من كريستينا سافر معها إلى أمريكا. بأشر بإجراءات الحصول على الجنسية الأمريكية. أكمل دراسته الأكاديمية في تخصص هندسة البرمجيات. عمل في عدة شركات في مجال الحاسوب، آخرها شركة حديثة، تقع مكاتبها في أحد برجى مركز التجارة العالمي، الذي صمّمه المعماري الأمريكي من أصل ياباني مينورو ياماساكي.

عاد ربيع النورس مع صديقه الهندي بعد جولتهما، إلى مكان إقامتهما في منطقة منهاتن، التي تقع في وسط مدينة نيويورك، على مصب نهر هدسون، ليستعدّ لرحلته الثانية إلى الأردن والإمارات لزيارة أسرته. كانت أول رحلة له خارج أمريكا بعد زواجه.

محطته الأولى، زيارة شقيقته التوأم أريج في الأردن. فقد تزوجت

من ابن خالتها، وانتقلت للإقامة معه في مخيم الوحدات للاجئين الفلسطينيين في العاصمة عمّان. لم تكن أريج راضية عن هذا الارتباط المجحف بحقها، خاصة وأنها تفوّقت في امتحانات شهادة الثانوية العامة، وحصلت على معدل يؤهلها للدراسة في الجامعة.

بكت كثيرًا وهي تخبر أهلها أنها لا تستطيع الزواج من شخص لا تعرفه ولا تحبه، مجرد صورة باردة بألوان كالحة لوجهه ومبتورة لجسده، هذا فقط ما رأته، صورة عريسها الأغبر المرسلة عبر رسالة شاحبة. ظلّت والدتها توبّخها، وتقول لها إن الحب يأتي بعد الزواج، وتصرخ في وجهها: «بلا حب، بلا بطيخ».

كان مبرر أهلها أن ابن خالتها يحمل رقمًا وطنيًا، وجواز سفر أردني مؤقّت خمس سنوات، يضمن لها حياة كريمة وأمانًا اجتماعيًا، وتتخلّص من عقدة وثيقة السفر التي كانت تقف أمام أحلامهم. تحت ضغط والديها، رضيت مرغمة وساخطة على حظّها، ولكن كان شرطها أن تكمل تعليمها بالانتساب إلى جامعة بيروت العربية، وكان ذلك أضعف الإيمان أمامها. جاء طلبها بناء على نصيحة صديقتها الشيماء، التي التحقت بجامعة الإمارات؛ لدراسة تخصص الصيدلة كما كانت تحلم في يوم ما.

بعد زيارة شقيقته أريج، سيكمل ربيع النورس رحلته إلى أبو ظبي لزيارة والدته التي تفرّ من شتاء عمّان وتقضي نصف السنة الباردة في الإمارات في منزل شقيقته الصغيرة شهد، التي تزوّجت من صديقه نبيل، بعد أن اكتملت حلقات فصول قصتهما التي لم يتوقع أحد نهايتها السعيدة.

أما قصة علياء شقيقة نبيل وحببها سليم الفانك، فبقيت في طي المجهول، تكتنفها الأسرار، ولم يعرف أحد أين ومتى وكيف عُزلت خيوط قصتهما.

بعد سفر ربيع النورس إلى أمريكا بستتين، أُصيب والده برهان النورس بمرض تليّف الرئة؛ إذ إنه أمضى سنوات عمله ما بين مصفاة الشعبية في الكويت، ومصفاة أم النار في الإمارات، ودفع ضريبة الخليج من صحته وعافيته. حاول والد النبيل المختصّ بطب أمراض المنشآت النفطية أن يدبّر له عملية زراعة رئة في البرازيل، لكن نسبة نجاحها متدنية، والمخاطرة عالية جدًّا. بقيَ والد ربيع ملازمًا لجهاز التنفس الصناعي عدة أشهر، ولم تفلح الأدوية في الحد من المرض الذي تفاقم وأثر على وظائف جسمه، وبدأت السوائل تتجمّع في رئتيه، حتى وصلت إلى القلب، وفارق الحياة. شعر ربيع النورس بالخزي لأنه لم يكن إلى جانب والده في تلك الظروف الصعبة؛ فإجراءات الحصول على الجنسية الأمريكية تحتم عليه الإقامة المتواصلة لفترة، وعدم المغادرة لأي سبب.

قبل السفر، ذهب ربيع النورس لزيارة شقيق زوجته - الضابط السابق في قوات المارينز - في المستشفى ليطمئن عليه. إذ بعد انتهاء مدّة خدمته في القاعدة البحرية في الخليج، ومشاركته في حرب تحرير الكويت، أُصيب بأعراض غريبة تمثلت في الخمول المزمن، وفقدان السيطرة على العضلات الإرادية، وآلام المفاصل، والإسهال، والقيء، وتضخّم الغدد اللمفاوية. أجرى التحاليل المخبرية، وتبيّن أن الأمصال التي حُقن بها الجنود المشاركون في حرب الخليج الثانية لوقايتهم من الأسلحة البيولوجية، كان لها آثارٌ سلبية على صحتهم. إضافة إلى استنشاقهم لبخار حمض التريك المنبعث من إطلاق الصواريخ والقذائف، واحتراق وقود الديزل في حقول آبار النفط المحترقة في الكويت.

في آخر يوم له في العمل وقف أمام شباك مكتبه في برج مركز التجارة العالمي. البحر أمامه، وتمثال الحرية، تلك السيدة التي تقف ثابتة، تنتصب بشموخ. تحمل شعلة نار في يدها اليمنى وكتابًا في اليد الأخرى. شريط متتالي من ذكرياته توالى سريعًا بلا توقف وهو يسترجع عشر سنوات أقامها في مدينة نيويورك.

حزم ربيع النورس أمتعته، وذهب برفقة صديقه الهندي توني موهان إلى المطار، وتوادعا على أمل اللقاء القريب. أرسل صديقه الهندي معه بعض الهدايا إلى أسرته التي تقيم في إمارة دبي. لقد استطاع أبناء وأحفاد التاجر الهندي راو موهان أن يطوروا أعمالهم التجارية في الخليج والعالم، ويؤسسوا إمبراطورية تجارية وثروة ضخمة تدار أعمالها من مدينتي دبي ولندن.

هيا يا ربيع النورس اركب طائرتك. اسرع لا وقت لديك. أنت لا تعلم أن برحيلك سيكتب لك عمر جديد. اسرع ولا تتأخر واركب الطائرة. دع ذكرياتك في أمريكا. فحقائب قلبك امتلأت ولا مكان للحزن. اسرع وحلّق كنورس يبحث عن الأمان بين شطآن الربيع القادم.

(١٠)

المملكة الأردنية الهاشمية (سبتمبر عام ٢٠٠١م)

مدينة عمّان

مخيم الوحدات للاجئين الفلسطينيين

زيارة سريعة لشقيقتك أريج، ترمي بظلالها الشاحبة في قلبك يا ربيع النورس وأنت تراها تدفع نفسها إلى حياة غريبة عنها من أجل أوراق رسمية، لكن ما باليد حيلة.

الحقائب لا تزال مفتوحة. لم يجمع ربيع النورس أغراضه المتناثرة في الغرفة؛ لأنه انشغل بتكنيس السجاد الذي سقطت عليه المنفضة التي ملأها بأعقاب السجائر بعد أن قضى الليل مستيقظاً، يفكر في مسلسل حياته العجيب.

ها هو رجل في بداية الثلاثينيات، يخوض غمار رحلة عمره على قارب خشبي صغير، يبحر به في محيط الحياة الواسع، مع حظ كنمرٍ آسيوي جائع، يصارعه تارة ويروضه تارة أخرى حتى يصل إلى بر الأمان، إن وجد.

وقف أمام المرأة يتأمل شاردًا قامته التي زادت بعض السنتيمترات -بعد علاج الهرمونات- ويعاين ملامحه الشاحبة وشعره الطويل. عاد من شروده لحظة شهقت أريج عندما دخلت عليه الحجرة المقلوبه رأسًا على عقب، ورائته بمنظر شبه عارٍ، وقطعة منكمشة من الملابس بالكاد

تغطي جذعه السفلي، ولم يَبْقَ على موعد إقلاع الطائرة سوى ساعات قليلة.

قضى ربيع النورس في العاصمة عمّان ثلاثة أيام فقط في منزل أريج وزوجها. لم يتحمّل طقوس الحياة في مخيم الوحدات. كان يستيقظ على شجار النسوة وهن يخاطبن بعضهن عبر شبائك المنازل المتلاصقة، والويل إذا غضبت إحداهن لأنها فوراً وكطقس متعارف عليه، تخرج ثديها خارج ملابسها وترفعهما إلى الأعلى، وتبدأ بالدعاء على جارتها الظالمة.

زار ربيع النورس منزل جدّه، الذي لم تعد خارطة فلسطين معلّقة على جدرانها، ولا صورة مسجد قبة الصخرة. فرّوا بين ليلة وضحاها من الكويت، في أعقاب حرب الخليج، التي أكلت الأخضر واليابس، وعادوا بخفيّ حنين. وها هو جدّ ربيع يعود أدراجه إلى المخيم، الذي حاول قدر المستطاع أن يكون بعيداً عنه. تغيّر مزاجه وأصبح يهدّد الجدة بالزواج عليها، فلم يتركه أبناء عمومته بل راحوا يحرضونه على فكرة الزواج بامرأة شابة، بعد أن أصبحت الجدة عاجزة لا تتحرّك. كان كلما غضب منها لأتفه سبب يلوّح في وجهها بالبطاقة الخضراء الأمريكية التي حصل عليها بعد سفره المتكرر إلى أمريكا لزيارة أبنائه.

سافر خاله الصغير إلى أمريكا ليلتحق بإخوته، أما خالته الصغيرة فقد أصابتها بعد حرب الخليج حالة نفسية معقّدة، تهذي بكوابيس مستمرّة. لم تتحمّل المسكينة الصدمة؛ فامتلاً وجهها بالبثور والتقيّحات، ولزمت المنزل وعزفت عن الزواج.

ظلت أريج تزور خالتها وشريكتها في حب الشاب الكويتي مشعل العلي الذي فجع بالمأساة التي لحقت بوطنه الجريح، دُمّرت البنية التحتية للمنشآت الكويتية، وتعرّضت البيوت والمحال التجارية والبنوك للسرقة و... و... والكثير مما يدمي القلب وجعاً. اعتقل الجيش العراقي ثلاثة من إخوته. فزع قلبه بعد أن شاهد صورهم التي التقطها لهم أحد

أصدقائه في المستشفى بعد تعذيبهم. دُفِنوا في مقابر جماعية بعد أن امتلأت ثلاجات الموتى في المستشفيات وأرضها بالجنث المشوّهة. انضم مشعل العلي بعد عودته إلى جماعة الإخوان المسلمين، ولم يعد يرتدي سراويل الجينز والقمصان المعرّقة، ويسرّح شعره على الموضوعة. الغريب أن خالتها كانت تبسم وتصبح نفسيتها جيّدة عندما تحدّثها أريج عن لقاءها بمشعل العلي، وتخبرها كيف أن المصادفات جعلته يسكن معهم في المجمع السكني التابع لمصفاة البترول، في جزيرة أم النار خلال الحرب. لم يكن الأمر يزعجها ولا عادت تغار عليه، بل كانت الحكاية تعيد إليها شيئاً من نسمات الحب الذي جمعهما في أحضان الكويت قبل الحرب.

صرخت أريج بصوت عالٍ: «ربيع، ماذا تفعل؟ اترك المكنسة ورتب باقي أغراضك، ولا تنسَ جواز سفرك. ربيع، أطفئ المكنسة واسمعي أرجوك».

كان ربيع يتأمّل فم شقيقته وهي تتكلّم بسرعة وانفعال. تشد حجابها على رأسها وتعصر به عنقها، تبدو فيه كالمشنوقة؛ فقد أجبرها زوجها على ارتدائه بعد زواجهما. تضع العدسات اللاصقة، بعد أن تخلّصت من النظارات الطبية، التي كانت تأكل نصف وجهها النحيل، الذي برزت منه العظام؛ بسبب الهمّ، وتربية الأطفال، وتحمل مزاج زوجها النكد غريب الطباع.

لم يكن زوجها سبباً في سعادتها كما تخيل أهلها. انحنت قامتها، وأصبح كتفها مقوستين إلى الداخل، وصدرها ضامراً. تغيّرت أريج من يوم زواجها وانتقالها من مدينة أبو ظبي. لم تتأقلم مع ظروف الحياة وطباع الناس في المخيم، ومع الوقت كبرت هوة عميقة تفصلها عن نسيج الناس في مجتمع عمّان.

كانت حمايتها تتدخل كثيراً في شؤون حياتهما، ترصد دخولها وخروجها، تفتش أكياس التسوّق، وتنكش دولا ب ملابسها، وتسأل عن كمية استهلاكها من اللحوم والدواجن في الطعام. دائماً تُشعر أريج

بالتقصير نحوها، وأنها لا تصلح أن تكون زوجة لابنها، الذي تراه في نظرها زينة شباب المخيم. كانت حماتها ترصد موعد دورتها الشهرية، وكمية طمثها؛ لتتأكد من مدى خصوبتها، وقدرتها على إنجاب الذرية الصالحة. دفعها زوجها للعمل في إحدى مدارس الغوث (الأونروا)؛ لتساعد في مصروف البيت رغم أنه لم يتكفل بمصاريف تعليمها، وكان والدها يرسل لها قسط الجامعة، وبعض النقود بالسر لتفّرّج عن نفسها. كرهت العمل ولم يكن هذا طموحها، كانت تريد أن تتخرط بالعمل لرغبتها به، ولتحقق ذاتها في ما تحب، ليس من أجل إحضار مصروف سجائر زوجها، وحفاضات رضيعها، وقهوة (بُن العميد) لحمايتها.

فجأة، وبحركة سريعة ركلت أريج زر المكنسة الكهربائية بكعب حذائها وهي تصرخ: «ربيع، أرجوك ارتدِ ملبسك». ساعدته في توضيب باقي أغراضه. تأكد من وجود جواز سفره الأمريكي في حوزته، وجرّ حقيبة سفره نحو السيارة التي ستأخذهما إلى المطار.

عندما خرجا من البيت. شاهد النسوة يجلسن أمام عتبات المنازل، يحتسبن القهوة ويثرثن. رائحة النميمة على الجيران نفوح همساتها في المكان. وصل إلى مسامعه انتقادهن لشكله وشعره الذي يطيله كالبناات، متعوّذات من الشيطان الرجيم، شاهقات بكلام لم يفهمه، تافات داخل صدورهن العامرة بالأسرار والمصائب.

اعترض طريقهما صبيه يلعبون بالكرة في الشارع. ركضت فتيات صغيرات بالقرب منه، وهن ينشدن بصوت عالٍ: «فلسطين داري ودررب انتصاري.. تظل بلادي هوى في فؤادي.. ولحنًا أبا على شفتيا.. فلسطين داري ودررب انتصاري».

تنهد ربيع النورس وهو يفكر بمدى قرب فلسطين المحتلة منه جغرافياً، على مفرق طريق واحد، ونهر واحد فقط، لكن أين السبيل إليها؟ سافر ربيع النورس إلى أبو ظبي. مهبط الفؤاد والحب الأول والشهقة الأولى، إلى المدينة التي تملك القلب كل القلب والحواس الخمس.

(١١)

دولة الإمارات العربية المتحدة (١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م)

مدينة أبو ظبي

واكتملت حلقات الحكاية.

وقف نبيل في قاعة المطار، ينتظر ربيع النورس صديق طفولته. ينظر إلى ساعته تارة وإلى لوحة مواعيد وصول الطائرات القادمة إلى مطار أبو ظبي الدولي تارة أخرى. كالعادة، تأخرت طائرة الخطوط الجوية الملكية الأردنية، القادمة من العاصمة عمّان، نصف ساعة عن الموعد المقرّر.

لم يسكت هاتف نبيل المحمول عن الرنين. اتّصلت والدّة ربيع بنسيبها عشرات المرات؛ تسأل عن ابنها. طمأنها نبيل أن الطائرة تأخرت، لكن قلبها لا يطاوعها، وبعد أن تغلق الخط تعيد الاتصال به مرة أخرى. كانت والدته تريد الذهاب إلى المطار لاستقباله، لكن عندما خرجوا من البيت، انزلقت قدمها. بكت مقهورة على حالها؛ فقد انتفخت قدمها ولم تتمكن من المشي.

ظهر ربيع النورس أخيراً من بين الجموع المتدفقة من المسافرين الواصلين. من بعيد استطاع نبيل التعرف إليه؛ فما زال يرتدي ملابس كتابية بيضاء اللون، وبطيل شعره ويربطه بعقدة إلى الخلف كذيل

حصان. نظر ربيع النورس في وجوه الناس المنتظرة، متفرّساً في ملامحهم يبحث عن نبيل الذي نادى عليه ملوّحاً له بيده، فاتجه نحوه هرولة. تعانق الصديقان بعد شوق وحنين وغياب طويل. إن غياب أيام لمن نحبهم نحسّ بأنها شهور، فكيف إذا كانت سنوات كما هو حال غيبة ربيع؟

على الفور أجرى ربيع النورس مكالمة مع والدته وشقيقته شهد؛ ليطمئنهما على وصوله بالسلامة. أخبره نبيل عن عشرات المكالمات التي أجرتها حماته معه لتتأكد من وصوله. تبادلوا الضحكات، وركبا سيارة نبيل البورش حمراء اللون، وانطلقا كالصاروخ إلى المنزل.

* * *

تزوَّج نبيل من شقيقة ربيع الصغيرة شهد بعد أن حصلت على شهادة الثانوية العامة. رفضت أن تكمل تعليمها الأكاديمي -على عكس شقيقتها أريج- رغم إصرار والديها على أن تلتحق بالجامعة. أحياناً يكون موقف الأهل عكس رغباتنا، وكأن الحياة مُركّبة بالمقلوب. لم يرفض لها نبيل طلباً أو يبخل عليها بشيء؛ فقد كان يحبّها حباً جعله يتحمّل كل الغيرة والشر في داخلها. استأجر فيلا في منطقة البطين. في الطابق الأرضي أنشأت شهد مشروعا صغيراً، يتكوّن من صالون تجميل، ونادٍ رياضي للسيدات، وسكنت في الطابق الثاني مع أسرته. قصة شهد ونبيل هي الوحيدة التي رأت النور واكتملت جميع ملامحها من بين قصص القلوب التي احترقت بنار العشق، وتلاشت مع الأيام.

أنهى نبيل دراسة الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت، وبعد تخرّجه أسس مع والده مستشفى خاصاً في مدينة أبو ظبي بالشراكة مع مجموعة مستثمرين عرب وخليجيين وأجانب.

* * *

وصلوا إلى المنزل. أول من وقف في استقبالهم ابتنا شهد التوأمان السياميان. كانتا للتو عائدتين من درس الباليه، وهما ترتديان ملابس الرقص. كانتا تبدوان كقطعتي حلوى المارشميلو. تحدّثنا بلغة إنجليزية طليقة مع خالهما. لم يعرفهما سوى في الصور الفوتوغرافية، التي كانت شهد ترسلها باستمرار، مدوّنة خلف كل صورة تعليقاً مضحكاً. أدخل التوأمان السيامي السرور إلى قلبه، وتغير مزاجه كلياً.

كانت رائحة الأطايب تنتشر في كل مكان، وشهد تضع اللمسات الأخيرة على طبق الرافيولي الإيطالي. قال ربيع النورس بصوت عالٍ، عندما دخل البيت: «الله يرحم أيام الشيشبرك يا إمي؟ هلاً صار رافيولي!». ضحك الجميع ضحكات ممزوجة بالبكاء. قال كلماته وهو يتوجّه نحو والدته التي كانت تسير وهي تتعكّز على عصا خشبية بسبب سقوطها. ألقت نفسها في أحضانها تضمّه، وتشمّه، تبكي وتعاتبه على طول غيابه الذي كان بنظرها غير مقنع.

حمدت الله أنه عاد بالسلامة. طال عناقهما ولم تكن لتتركه. تتحسّس جسمه، تخاف أن تكون في حلم وليس في علم، وكلما رفعت رأسها عادت لتضمّه مرة أخرى بقوة، وتبكي وتترضى عليه. بكى الجميع على حرارة لقاءهما. دفع ربيع النورس غربة وليالي من القهر ثمناً للحصول على جواز سفر، يزيل عنه كابوس الوثيقة الواقف في طريق أحلامه.

قالت والدته وهي تنتهّد: «يمّا يا ربيع يا حبيبي، بدي أجوزك. شفتلك أنا وأختك شهد عرايس». رد بضجر: «أمي، ليس الآن وقت هذا الموضوع!». كان جرح وفاة زوجته لم يندمل بعد، انغمس بعد رحيلها في العمل بطريقة جنونية أنسته نفسه، ولم يفكر في الارتباط من جديد.

التفوا جميعاً حول المائدة ليتناولوا الطعام، ثم احتسوا الشاي وهم يتبادلون أطراف الحديث. أخرج ربيع النورس الهدايا التي أحضرها لهم من أمريكا، وكيس هدايا شقيقته أريج الممتلىء بالزعر البلدي، والصابون النابلسي، والمريمية.



في المساء، خرجوا جميعهم بسيارة شهد ذات الدفع الرباعي للقيام بجولة على الكورنيش. تغيّرت معالم العمران في مدينة أبو ظبي كثيراً بالنسبة إلى ربيع النورس، الذي ابتعد مدةً طويلة عن المكان. أصبحت مدينة عصرية تحاكي المدن الأمريكية في مبانيها وتصاميمها الحديثة. شهقت ناطحات السحاب الزجاجية بدل المباني القديمة والصغيرة. الشوارع غدت بأربعة مسارب واسعة. بُنيت مجمّعات تجارية كبيرة. ظلّ ربيع النورس يتأمل المدينة الجديدة العصرية حتى وصلوا إلى المارينا مول، في نهاية شارع كاسر الأمواج، بالقرب من نادي أبو ظبي للرياضات البحرية. في المرسى مقابل النادي، رست يخوت فارهة، تنعكس أشعة الشمس على بياض ألوانها.

شرد ربيع النورس يفكّر في يارا الغريب، عندما مروا بالقرب من الأماكن التي كانا يلتقيان فيها، كعاشقين صغيرين. كم مرة كان ينوي السفر إلى الإمارات؛ لزيارة أهله بعد وفاة زوجته، ولكنه كان يخشى أن يراها مع زوجها، وهو مشهد لا يتحمّله قلبه. هرب من الدنيا وكل مكان يذكره بها.

لكنّ ابنتي شهد الصغيرتين لما تسمحاه بالشرود مدةً طويلة. أمسكتا بيديه، وقفزتا حوله كعصفورتين فرحتين بخالهما. ترتدي كل واحدة منهما ثوباً وردياً فاتحاً، وتحملان حقيبتين صغيرتين، وتضعان على رأسيهما طوقاً على شكل أذني أرنب.

في نهاية جولتهم بين المحلات التجارية في المول، ذهبوا لاحتساء القهوة في أحد مقاهي الطابق الثاني. كانت الشاشات أمامه في المقهى تبتث الأغاني الصاخبة، والفيديو كليب. تتراقص الأجساد شبه العارية للمطربين والمطربات، مع الألحان العربية الممزوجة بنغمات أجنبية، لتصنع خليطاً لم تستسغه أذناه، فأشاح بوجهه بعيداً يتحدث مع شهد والدة.

فجأة، اختفى صخب الأغاني الماجن، وحل مكانه صوت المذيع الرصين على قناة الجزيرة الإخبارية. كانت القناة تبتث على الهواء مباشرة خبر اصطدام طائرة مدنية مخطوفة بالبرج الشمالي من مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك. شهقت أرواحهم، وتعلقت قلوبهم في حناجرهم. قفز ربيع النورس نحو الشاشة يحدق بالصورة غير مصدق أن مكتبه في الطابق الخمسين يذوب ويتلاشى. اعتقد أنه فيلم من أفلام هوليوود، وأن الموضوع مجرد خدعة سينمائية وليس خبراً حقيقياً. بعدها برقع ساعة اصطدمت طائرة أخرى بمبنى البرج الجنوبي. أكلت النيران البرجين، والدخان الأسود الكثيف يتصاعد منهما بجنون.

انهار البرجان، فيما كانت تشتعل فيهما نيران عنيدة.

بكت والدة وشقيقته شهد وهما تحتضنانه غير مصدقين أنه بينهم حي يرزق، مذهولتين من الفاجعة التي أمامهم على الشاشة، وكيف كتبت الله له النجاة والسلامة من كارثة رهيبية.

كان الناس يتجمعون أمام الشاشات غير مصدقين ما يحصل، وتزداد إثارته مع أخبار حول مَنْ قام بهذا الهجوم. وارتفع الصياح مع ورود خبر أن طائرة ثلاثة ضربت مبنى البتاغون، وطائرة رابعة كانت في طريقها إلى هدف آخر، لكنها تحطمت وسقطت.

تردد ربيع النورس كثيراً قبل أن يأخذ قرار السفر لقضاء الإجازة

في الإمارات، ولولا إصرار والدته التي نطف قلبها على رؤيته، لربما قُضِيَ عليه في هذا الهجوم. عُمُرُ يا ربيع النورس كُتِبَ لك، ولم تكن تحسب لذلك حسابًا. عُمُرُ أضيف لأيامك القادمة من حيث لا تدري.

انسحبوا من المول، والصمت يكبلهم بغلالة من نار. غادروا المرأب باتجاه البيت، ومن الارتباك الذي سقط عليهم بعد مشاهدة الأخبار؛ شَرَدَ نبيل ولم ينتبه إلى سرعة السيارة أثناء قيادته، وداسَ بلا وعي على المكابح بأقصى قوته؛ ولكنّه اصطدم بالسيارة التي أمامه اصطدامًا خفيفًا ونجوا من حادث مروّع.

نزل نبيل وتبعه ربيع النورس ليتأكدًا من سلامة السيارتين من أي ضرر. نزلت من السيارة التي أمامهم، سيدة نحيلة الجسم لها قوام متوسط، تربط حول عنقها وشاحًا ملونًا لفت انتباه ربيع النورس، شعرها قصير جدًا (بوي) مصبوغ بلون أشقر فاتح، وتضع قرطًا ذهبيًا صغيرًا في جانب واحد من أنفها.

اعتذرا للسيدة، وتأسفا عن الموقف غير المقصود. وقفت أمامهما ولم تنطق بكلمة، ثم نظرت مباشرة في عيني ربيع النورس. ارتبك من نظراتها المتسمرة، ونظر نحو نبيل متعجبًا من الموقف. كررا اعتذارهما للسيدة الصامتة، وركبا السيارة.

سأل نبيل بتعجب: «هل تعرف هذه السيدة يا ربيع؟».

- كلا.

- كانت تنظر نحوك وكأنها تعرفك!

- لا أعرفها.

فتحوا التلفاز فور وصولهم إلى البيت. ظلّوا يتابعون الأخبار على قناة الجزيرة الإخبارية. تسمّر ربيع النورس أمام الشاشة. بعد

ساعات من الأحداث المأساوية وجّه الرئيس جورج بوش الابن في بيان صحافي مباشر، أصابع الاتهام إلى تنظيم القاعدة وزعيمه أسامة بن لادن، الذي أثنى على منفذي التفجيرات، لكنه لم يعلن تبنيّه للعملية.

أجرى ربيع النورس اتصالاً هاتفيّاً، ليطمئن على صديقه الهندي الذي كان بخير ولم يصبه مكروه، وأخبره أن الجميع في صدمة غير متوقّعة. تذكر كيف كان والده يتابع الأخبار السياسية على قناة الـ(سي أن أن) الأمريكية خلال اندلاع حرب الخليج الثانية، عندما اجتاحت القوات العراقية دولة الكويت واحتلتها قبل إحدى عشرة سنة مضت. نام ربيع النورس ليلتها وهو يشعر بصداع شديد، يكاد يشطر رأسه إلى أجزاء.

* * *

في صباح اليوم التالي، خرج نبيل إلى المستشفى، وذهبت شهد للإشراف على الصالون والنادي الموجودين في الطابق الأول من الفيلا، بعد أن خرج التوأمان إلى المدرسة.

حضرت فريال العباسي القهوة، لتحسبها مع ابنها. تأمل ربيع النورس والدته التي تغيّرت هيئتها؛ إذ أصبحت تضع على عينيها النظارات الطبية. تقمّط رأسها بقمط قطني، وترتدي ملابس غامقة على جسدٍ انكمش وأصبح هزيلًا بسبب الحزن الطويل. وفاة والده بُرّهان النورس ورحلة مرضه، أضافت سنوات إلى عمرها، وجعلتها تهرم وتبدو كبيرة.

رشف ربيع النورس القليل من القهوة، وخرج مسرعاً من البيت. نادته والدته: «يمّا يا ربيع، وين رايح يا حبيبي؟». ردّ عليها من دون أن يلتفت نحوها: «أريد أن اتمشى قليلاً؛ أشعر بالضيق. لا تقلقي».

ركب سيارة الأجرة، وطلب من السائق البنغالي أن يأخذه إلى أسفل جسر المقطع. وصلا إلى المكان الذي لا يمكن أن ينساه. أحس بالخوف القديم نفسه، والرهبنة التي تكتنف المنطقة. وكان الأيام لا تغير ما بداخلنا من مخاوف وهواجس. نزل من السيارة يبحث عن أي أثر للسومريّ أسفل الجسر. لا بوشيات، ولا نار، ولا خيمة، ولا أي شيء أبداً. انتظر أن يخرج السومريّ، ويناديه في أي لحظة، لكنه لم يسمع سوى ضجيج السيارات العابرة فوق الجسر بلا توقّف.

ماذا توقّعت ياربيع النورس أن ترى؟ وماذا أردت أن تسأل السومريّ؟ عاد أدراجه إلى السيارة، وطلب من السائق الذهاب إلى مكان إقامته القديم في المجمع السكني لموظفي مصفاة أم النار لتكرير النفط. من بعيد لاحظ له شعلة المصفاة، متوهجة بنارها المنبثقة من برج التكرير. كانت الشعلة، الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر مع الوقت، ولا تزال تثير السماء، بلا كلل أو ملل.

دخلا المجمع السكني، وطافت السيارة بهدوء في شوارعه. التصق بالشباك ينظر بعينين جاحظتين؛ ليروي بصره الظمآن، لذكريات عمره وطفولته.

رحل عن هذا المكان بعد زواجه بأيام، يتأبط ذراع زوجته الممرضة الأمريكية كريستينا. كانت بلسماً لروحه، ومخلصته من عذاب غياب حبيبته. لم يكن اقناعه بالزواج منها سهلاً. فقد خطّطت شهد بالتعاون مع صديقه نبيل لإقامة حفل في نادي الموظفين، على أن يعزف شقيقها في الحفل على غيتاره. عزف كل الأغاني التي تحبّها يارا الغريب، ولم يكن يعلم أنها أغاني كريستينا المفضّلة؛ كانت كريستينا مأخوذة بقوة مشاعره وبالحزن الساكن في عينيه. ظلّت شهد تخترع المناسبات وتجد أعذاراً ليرافقها إلى العيادة. لم تمض عدّة أشهر وإذ بهما يعلنان خطوبتهما. وافقت والدته على مضض، أما والده فقد كان رافضاً لفكرة سفره

وزواجه، لكن ربيع النورس واجهه رافعاً وثيقة سفره أمامه؛ ليخبره أن هذه الأوراق لا معنى لها ولا تصنع حياة ومستقبلاً.

عندما وصلوا أمام العمارة التي كان يقطنها مع أسرته، أشار بيده للسائق أن يتوقف. ترجل من السيارة، للحظة خيّل له أنه يرى شبح والده بُرهان النورس يرتدي ملابس العمل الزرقاء الخاصة بالمصفاة، ويضع خوذته على رأسه عائداً من عمله ومتوجهاً نحو العمارة. نادى عليه لكنه لم يجب، ولم يلتفت لندائه الذي شقَّ حلقة. وها هو شبح والدته فريال العباسي، تنشر الغسيل على الحبال البلاستيكية الممدودة في شرفة شقتهم.

شبح أخته التوأم أريج تحمل كتبها وتنتظر حافلة المدرسة. اشتاق لصديقه سليم الذي مات بعد أن نزلت عليهم لعنات السومريّ.

فجأة، سمع صوت مواء يأتي من أسفل سيارة تقف بالقرب منه. تساءل في نفسه: «يا ترى هل من الممكن أن تكون القطّة سونيا عادت من العالم الآخر بعد أن ساقها إلى الموت بيده التي لم تعرف الإخلاص لوفائها معه؟». نظر أسفل السيارة لكنه لم يجد شيئاً. كم احتقر نفسه وهو يتذكّر كيف صدّق السومريّ، عندما لعب بعقله، وطلب منه أن يحضرها. أوهمهم أنها ستنطق، وتخبرهم بمكان حبيبته بعد أن يحرقها في النار.

لمع من بعيد نورٌ بالقرب من عيادة المجمع السكني. اقترب بخطواته ليشاهد شبح يارا الغريب، تتوهج كنجمة في الحديقة الصغيرة. تجلس في القرص الدوّار. تتطاير من خصلات شعرها الذهبية فراشات فضية، حملتها الفراشات المتلائة إلى الأعلى مبتعدةً بها نحو السماء، كما ابتعدت عنه يوم زفافها من الخائن إبراهيم الخاتم.

ظل ربيع النورس يتجول بين العمارات، ينادي على ذكرياته وأصحابه،

لكن لا أحد يجيب. الشمس فوقه ضربته بسيطا أشعتها الحارقة لتتدحرج على بشرة ظهره قطرة عرق أحس بمسارها الطويل، على طول جسده المنهك.

استيقظ من شروده على وقع ضربات السائق على بوق السيارة ليسأله هل ينتظر أم يذهب؟ كان السائق البنغالي يضرب كفاً بكفٍّ، ويبرطم بكلمات غير مفهومة ساخطاً عليه، بسبب الحيرة التي أوقعه فيها، وبسبب عدم فهمه لأسباب مجيئه ودورانه في المكان.

* * *

عاد ربيع النورس من جولته يشعر بأن ألم رأسه عاد إليه من كثرة الكلام الذي أطلقه السائق من دون أن يفهم ماذا يريد. تنفّس الصعداء، بمجرد نزوله من السيارة اللعينة، أمام منزل شقيقته شهد.

لحظة أراد الالتفاف لصعود الطابق الثاني من المنزل، تقابل وجهًا لوجه مع السيدة التي صدموا سيارتها في المارينا مول. كانت تريد الدخول إلى صالون شهد في الطابق الأرضي. تذكّرها من الشال الصغير الذي تلفه حول عنقها، تحكم عقده وتلمسه بين الحين والآخر بيد متوتّرة، وكأنها تحاول إخفاء شيء ما.

ارتبكا لحظة لقائهما المفاجئ. تبادلوا التحية، وكرر اعتذاره منها عن الحادثة. أنزلت السيدة نظاراتها الشمسية، وحدقت مباشرة في عينيه، وكأنها تريد أن تخبره شيئاً أو تريد أن يرى عينيه بشكل أوضح. ارتبك ربيع النورس، وخفض رأسه فاسحاً لها المجال كي تدخل. تغيرت ملامحها بعد أن أخبرها أن شقيقته صاحبة المكان، وتردّدت في فتح باب الصالون، الذي تزوره لأول مرة. استأذن منها، متمنياً لها نهاراً سعيداً وصعد.

دخل ربيع النورس البيت، وتوجّه إلى التلفاز ليتابع آخر التطورات،

في حوادث الحادي عشر من سبتمبر. أمضى ساعات يقلب القنوات الفضائية ويحبس دمعة حارّة تريد أن تقفز من عينيه كالصاروخ. اقبلت والدته نحوه. شعرت بأن ابنها ليس بخير، وأنه يطحن نفسه بالتفكير. أفلت التلفاز، وقذف بجهاز التحكم بعيداً عندما جلست بجانبه. رمى بنفسه في حضنها، مكوراً جسده كالجنين. ربّبت عليه أمه براحة يدها، وتنهدت بعمق. ألمها قلبها على وحيدها الممجوع، بعد أن أحست بحرارة دموعه الصامته التي بلّلت ثوبها. قرأت عليه آيات من القرآن؛ لتهدئ من روعه.

عادت هواجس حبه القديم لتتدقّق من جديد. بصعوبة استطاع التأقلم مع غياب يارا الغريب من حياته. في الماضي عوّضه حنان زوجته الأمريكية كريستينا، وبادلها الحب والإخلاص. لكن بقي حب يارا في زاوية ثابتة في قلبه لا تتغيّر، لن يملأها أحد على وجه الأرض.

لاحظت شهد شroud شقيقها ولم يعجبها حاله. ناقشت الأمر مع زوجها نبيل ليجدا طريقة للترويح عنه. كل يوم يأخذه نبيل إلى مطعم أو مول، لكن ربيع النورس لا يزال عالقاً في أحزانه.

طلبت والدته من شهد أن تقنعه بالزواج؛ علّه يفتح صفحة جديدة من الحياة التي اسودّت في وجهه. يعلمون مدى الألم والمعاناة التي مر بها خلال مرض زوجته، وعلاجها الكيميائي الذي أكل من أعصابه، وأكلها قطعة قطعة فذوت على مهل حتى تقلّص جسدها. في النهاية قالت الأقدار كلمتها الأخيرة، وأسدل الستار على قصتهما.

* * *

بعد أيام قليلة وفي يوم العطلة، كان منزل شهد مُضاءً بالبهجة. ابتناها التوأمان السيامي ترديان ملابس جميلة، وتنتظران معلّمة البيانو الجديدة.

أعدتّ شهد مع والدتها الكيك والعصائر. تغيّر مزاج ربيع النورس مع الأجواء المفرحة. جلست التوأمتان في حضنه، تثرثران مع خالهما، حتى دمعت عيناه من الضحك معهما.

دق جرس الباب وذهب ليفتحه. «ماذا تفعل هذه السيدة هنا؟»، قال محدثاً نفسه. ظل ينظر نحو الفتاة الواقعة عند عتبة البيت. أحسّت بالخجل واحمرّ وجهها، بعد أن ألقت عليه التحية، ولم يرد عليها.

جاءت شهد تدعوها إلى الدخول: «تفضلي يا نرجس». لكزت شهد شقيقها على تصرفه غير اللائق مع ضيفتها. لم يفهم شيئاً مما يحدث أمامه. تبعهما إلى الصالة حيث جلست الضيفة مع التوأم السيامي؛ لتعطيها درساً بالعزف على البيانو.

قالت شهد: «أعرّفك على شقيقي، ربيع النورس». مديده ليسلم عليها، فبادلته السلام وتبسّما. لاحظت شهد أن في الأمر سرّاً. سألت شقيقها: «هل تعرفان بعضكما؟»، قال: «إنها صاحبة السيارة، التي صدمها زوجك عندما كنا عائدين من المارينا مول».

تعرفتّ شهد على نرجس يوم زارت صالونها أول مرة. راقّت الفتاة لشهد خاصّة وأنها تبحث لشقيقها عن عروس. علمت أنها تعطي دروساً على البيانو في المجمع الثقافي للفتيان والفتيات؛ فانتهزت فرصة أن تطلب منها إعطاء درس موسيقى لابنتها كي تعرفها على شقيقها بشكل عفوي. تبسّمت والدة ربيع من بعيد، وشعرت بأن الأمور تجري بشكل جيد.

عندما جاء وقت استراحة الدرس، نادت شهد على شقيقها لينضم إليهم، ويحتسي الشاي مع قطع الكيك الذي يحبه. حاولت شهد أن تمسك زمام الجلسة حتى تشجع شقيقها على الحديث مع نرجس. علموا

أنها تعيش مع والديها، لكنهما في الوقت الحالي مسافران في رحلة علاج. كانت نرجس حريصة على أن لا تعطي الكثير من المعلومات، عن نفسها وعن أسرتها. سألتها والدة ربيع: «إنت مخطوبة يا خالتو؟». هزّت رأسها بالنفي. ارتجف فنجان الشاي في يدها، ووضعته بسرعة على الطاولة، ثم عدلت ربطة الشال الصغير حول عنقها.

بعد انتهاء الدرس، غادرت نرجس منزلهم، وشكرتهم على حسن الاستقبال. عندما أغلقت شهد الباب، استدارت لتنظر إلى والدتها، والهواجس تدور في عقلها، قالت: «أشعر بأني أعرف هذه الفتاة!»، ردّت والدتها: «شكلها بنت عالم وناس».

لاحظ ربيع النورس، أن شقيقته ووالدته تريدان زجّه في علاقة جديدة كي تزوجانه، رغم علمهما برفضه الشديد للفكرة. يحاصره طيف المرحومة زوجته، وفي الوقت نفسه يشتاق ليارا الغريب. دخل إلى حجرته لينام، وأطفأ الأنوار، لكن رأسه اشتعل بأسئلة كثيرة عن مكان يارا الغريب؟ ومن سيسأل عنها؟ هل هي موجودة في أبو ظبي أم سافرت أم... أم... أم...؟

* * *

كانت نرجس تحضر مرتين في الأسبوع؛ لإعطاء ابنتي شهد درسًا على البيانو. وفي كل مرة تأتي للدرس، يبقى ربيع النورس في حجرته، متظاهرًا بالنوم أو يشاهد الأخبار.

في يوم عيد ميلاد ابنتي شهد التوأمين، خرج ربيع النورس من البيت غضبًا. فقد ألحّت عليه والدته أن يستيقظ ويشاركهم الاحتفال. ظلّت تردّد اسم نرجس عشرات المرات على مسامعه؛ فاختنق وبدأ يصرخ بلا وعي. رأى نرجس بين الحضور تعزف على البيانو سعيدة، والأطفال من حولها ينشدون الأغاني بفرح وسرور. فتح باب المنزل وصفقه

بقوة؛ فحفل الجميع مذعورين. انقهرت والدته من تصرفاته الصبيانية، وامتعضت شقيقته شهد لأنه أفسد فرحة طفليتها عندما رفض مشاركتهم الحفل.

ظل ربيع النورس يمشي وحده في الشارع. عاد إلى البيت بعد تأكده أن جميع الضيوف غادروا الحفل، بمن فيهم نرجس. طلب نبيل منه أن يخرجها بحجة شراء بعض الأغراض. توقف نبيل عند متجر باسكن روبنز للمثلجات، وتناولوا كوبيين من البوظة. نظر نبيل إليه بتعجب، قائلاً: «ربيع، لِمَ أراك متجهماً ومنطوياً؟»، توقف عن تناول المثلجات ورد بصوت مخنوق: «لا شيء».

- كيف لا شيء، انظر إلى نفسك في المرأة!

- يارا.

- يارا؟ مرت عشر سنوات، وما زلت تقول يارا. أنت تعلم أنها تزوجت، وتعيش حياتها الخاصة. أرجوك انساها.

- لا أستطيع يا نبيل؛ أنا إنسان من لحم ودم ومشاعر. لست دمية أو حجرًا أصم.

صمت نبيل؛ فلم يجد إجابة لهواجس صديقه، وعادا إلى البيت. دخل ربيع النورس حجرته وهو عازم على قطع إجازته والعودة إلى أمريكا بأسرع وقت. لم يخبر أحداً بقراره المفاجئ بالرحيل؛ لأنه يعلم أن والدته ستغضب وتمنعه من السفر.

أجرى اتصالاته مع صديقه الهندي ليطمئن عليه ويخبره بقرار عودته قبل انتهاء مدة العطلة. ظل جالساً في عتمة حجرته شارد الذهن، متمنياً لو أنه ظل في مكتبه، ودفن تحت أنقاض البرجين المنهارين، وارتاح من كل ما يشغل باله ويسبب ألمًا له وإزعاجًا لعائلته التي يحبها.

* * *

لم ينم ربيع النورس وهو يفكر بالموقف المحرج الذي وضع به الجميع جراء تصرفاته الهوجاء في الحفل. ذهب صباحاً إلى أقرب محل لبيع الأزهار، واشترى باقة من الجوري الأبيض وأرسلها إلى مكان عمل نرجس في المجمع الثقافي. كتب على بطاقة صغيرة اسمه، ورقم هاتفه، وكلمة اعتذار.

بعد العصر، خرج لزيارة نبيل في المستشفى الذي أسسه مع والده. تجوّل في أقسامه، وأعجب بالنجاح الذي حقّقه نبيل في حياته المهنية. في طريق عودته إلى البيت، مر أمام النادي السياحي. أشاح بوجهه عن المكان، وأغمض عينيه. كل مكان في مدينة أبو ظبي يذكره بيارا الغريب. تتأمر الأماكن لتعيده إلى الماضي عنوة.

طلب من سائق سيارة الأجرة، أن يأخذه إلى أبو ظبي مول. ذهب ليشتري بعض الهدايا لطيب خاطر والدته وشقيقته. في أحد المحلات تقابل بالصدفة وجهاً لوجه مع نرجس. كانت تقف مع صبي عممه قُرابة ثماني سنوات. تساءل في نفسه عن نوع العلاقة التي تربطهما. عاتب نفسه على جلافته معها في حفل عيد ميلاد ابنتي شهد، وأراد أن يلطف الأجواء بينهما، خاصة وأن ملامح وجهها بدت قاسية عندما رآها.

دعاها بلطف لاحتساء القهوة في أحد المقاهي في المول. اعتذرت منه، لكنه ألحَّ عليها كي تقبل دعوته. رضيت على مفضل، وجلسا مرتبكين. عرّفته على ابنتها. ظل ربيع النورس صامتاً يرتّب أفكاره، أما هي فكانت تحدّق في الفنجان أمامها. ذهب ابنها ليتجوّل في المول وتركهما وحدهما.

تجرأ ربيع النورس وحدثها في البداية عن نفسه ليفسح المجال للكلام بينهما أن يتحرّر من الخجل. كانت الجملة تخرج من فمه متوتّرة، لكن سرعان ما استرسل بالحديث عندما علم أن لهما ذاكرة

مشتركة في الإمارات؛ فهي مثله عاشت طوال حياتها في أبو ظبي، وعندما تزوجت انتقلت إلى رأس الخيمة، ومن مدة بسيطة عادت كي تقيم مع والديها.

سألها عن زوجها. تحسّست عنقها، واحكمت ربط عقدة الشال حوله. أخبرته أنها انفصلت عنه من عدة سنوات؛ فزوجها السابق كان يشرب الكثير من الكحول ويفقد السيطرة على نفسه. وفي إحدى المرات، كان ثملاً، ونشبت بينهما مشكلة كبيرة، انفصلا بعدها.

بدوره حدّثها أنه جاء منذ عدة أسابيع من أمريكا، لقضاء الإجازة مع والدته وشقيقته شهد، وأخبرها أنه يعمل هناك منذ مدة طويلة.

سألته نرجس وهي مرتبكة: «ربيع، هل تزوّجت؟». تنهد زافراً آهة طويلة ثم قال: «نعم، تزوجت فتاة أمريكية، وسافرنا للإقامة في مدينة نيويورك كي أحصل على الجواز الأمريكي وأتخلّص من عقدة الوثيقة المؤقتة. خلال تلك المدة أكملتُ تعليمي في الجامعة، وعمّلت في شركة متخصصة في برامج الحاسوب، ومن عدة أشهر مضت توفيت زوجتي بسبب إصابتها بمرض السرطان».

تأسّفت نرجس لخبر وفاة زوجته، وقدمت له تعازيها. شكرته على فئجان القهوة، واستأذنت منه لتغادر بعد أن عاد ابنها. أحس نحوها بالراحة والطمأنينة. شعر بحجم خطأه عندما تعامل معها بشكل فظ، فهي سيدة هادئة ورقيقة لكنها قوية وصلبة من داخلها رغم الظروف القاسية التي مرّت بها. تعجب ربيع النورس أنها لم تأتِ على ذكر باقة الأزهار، التي أرسلها إلى مكان عملها في الصباح!

أرسل لها في اليوم التالي باقة أخرى من أزهار الجوري الوردية. فقد تملّكه الشعور بالذنب نحوها، وأراد أن يصلح ما حصل قبل عودته إلى أمريكا. ظلّ على هذه الحال، يرسل كل يوم باقة مختلفة النوع واللون

من الأزهار إلى مكان عملها في المجمع الثقافي، لكنها لا تتصل به أو تقول أي شيء يريح ضميره. مع ذلك استمر بإرسال الزهور ولم يأس، وإذ بها في أحد الصباحات تتصل به من رقم هاتف عملها لتشكره على أزهار الزنبق الأصفر. كان صوتها يشي بالسرور، وضحكة تختبئ خلف كلامها.



مر أسبوعان، ونرجس لا تأتي لإعطاء درس البيانو لابنتي شهد. حاولت شهد الاتصال بها لكن هاتفها مغلق. سألتها ربيع: «شهد، ألا تعرفين مكان سكنها؟». تعجبت شهد من اهتمامه بنرجس وسؤاله عنها. نفت معرفتها بأي شيء عنها سوى أنها تسكن مع والديها، وهما حالياً في رحلة علاج خارج الإمارات. ندم ربيع النورس لأنه لم يطلب منها رقم هاتفها، عندما التقيا بالصدفة في أبوظبي مول.

شعر بالشوق لها. الشوق له أظافر طويلة، نمت في غيابها، وغرست في قلب الوقت الذي مرّ ببطء. جدران البيت باردة وصماء، بلا نوتات موسيقية تعزفها نرجس بقلبها الذي سكن أطراف أصابعها الرقيقة وهي تُلاعب أصابع البيانو برشاقة.

بعد أيام اتّصلت نرجس تعتذر لشهد عن تغيّبها المفاجئ عن درس البيانو. بعد إغلاقها للهاتف سألتها شقيقها عن موعد الدرس القادم، أخبرته أنها ستأتي في اليوم التالي. بعد أن دخل حجرته، قالت والدته لابنتها شهد مسرورة: «غمزت السنّارة»، لكن شهد شردت تُفكّر بشيء آخر.

جاءت نرجس في الموعد المحدد. كان وجهها يشي بالكدر والهم. عندما تبادلوا أطراف الحديث في استراحة الدرس، بالكاد نطقت كلمتين خرجتا متحشرجتين من فمها. ظلّ ربيع يتأملها وهو حزين، يخشى أن يسألها فيبدو فضولياً في نظرها.

انتهى الدرس، وخرجت تنتظر سيارة أجرة. دخل ربيع النورس حجرته وفتح ستارة النافذة ليشيّعها ببصره. تفاعاً عندما وجدها تقف على رصيف الشارع، ولم تأتِ بسيارتها. نزل مع شقيقته شهد ليوصلها إلى منزلها.

أراد ربيع النورس أن يطلب منها رقم هاتفها الخليوي، لكنه تردّد وخجل أن تصدّه، وطلبه من شقيقته. سكتت شهد وهما في طريق عودتهما، ثمّ قالت: «أخي العزيز، لاحظتك طوال درس البيانو تنظر إلى نرجس ولم ترفع عينيك عنها، والآن تريد رقم هاتفها، إذا لم تكن جاداً في علاقتك معها فدرع الفتاة في شأنها؛ إذ يبدو أن ظروفها ليست سهلة»، استطردت: «عندما تحسم مشاعرك نحوها، سأستأذن منها أولاً قبل إعطائك رقم هاتفها الخليوي».

لم ينم ربيع النورس، وظل يفكّر طوال الليل بكلام شقيقته شهد. في الصباح طلب رقم هاتف نرجس من أخته. صار يهاثفها بشكل شبه رسمي، بين الحين والآخر للاطمئنان عليها. طلب منها أن تتصل به إذا احتاجت أي شيء.

سألها في إحدى المكالمات عن سبب تغييبها الماضي. أخبرته أن طليقها استغل غياب والديها، وجاء إلى حيث تسكن بحجة رؤية ابنهما. لم تفتح له الباب؛ لأنها تعرف أنه فاقد لوعيه بسبب إدمانه على شرب الكحول، وخافت على حياتها وحياتها ابنها. ظل يصرخ في العمارة حتى تجمهر السكان حوله وطلبوا الشرطة. لم تكن تخرج من البيت إلا للضرورة، وتعود بسرعة، ومن بشاعة تصرفات طليقها أن قام بإتلاف عجلات سيارتها.

* * *

عرض عليها ربيع النورس الخروج أكثر من مرة لكنها رفضت، فكان

موعد درس البيانو الذي تعطيه لابنتي شهد، فرصتهما الوحيدة ليلتقيا. أفسحت لهما شهد الكثير من الوقت، على حساب الدرس، ليجلسا مع بعضهما ويتعارفا. أحببت شهد معلمة البيانو نرجس، وكذلك والدتها التي دعت الله أن يجمعهما بالخير، وينجبا الذرية الصالحة.

سألها ربيع النورس في إحدى المكالمات: «هل أحببت في الماضي؟». تفاجأت نرجس من سؤاله وسكتت. اعتذر لها عن السؤال الجريء. أخبرته أنها أحببت في الماضي شاباً بادلها الحب والاهتمام، أراد أن يخطبها ويكملها قصة حبهما بالزواج، ولكن لظروف غامضة لم يرتبطا.

سألته نرجس: «وأنت، أخبرني عن نفسك؟ يبدو من سؤالك أن لك حبيبة». ضحك ربيع النورس وأحس بأنها تقرأ أفكاره، وقال: «نعم، أحببت فتاة عذبة وأنا شاب مراهق، كانت تسكن في العمارة المقابلة لنا في المجمّع السكني، لموظفي مصفاة أم النار. كانت بيننا تفاصيل كثيرة، لكنها تزوّجت من رجل نذل، ورفضني والدها بحجة أنني أحمل وثيقة سفر مؤقتة. وأنه يريد لابنته حياة مستقرة، وأن لا تتشرد بين البلدان».

سكت قليلاً، ثم أضاف بانفعال: «كانت قاسية القلب. اختفت فجأة، ورأيتها في يوم زفافها تتأبط ذراع أحقر رجل في العالم. مرضت وقضيت أياماً لا أكل ولا أشرب. لن أسامحها على الموقف الصعب الذي وضعتني فيه، من دون أن تشرح لي الأسباب الحقيقية لما حدث».

قالت له: «سامحها يا ربيع؛ قد تكون مُجبرة على الزواج لأمر ما وليس خيارها. أرجوك سامحها».

ردّ عليها: «لقد مضى أكثر من عشر سنوات، وجرح حبي لها لم يندمل بعد». وعندما سألته عن اسمها. راح يتهجى حروف اسمها في قلبه، ثم قال: «يارا الغريب».

تحمّس ربيع النورس وفتح شبابيك قلبه العطشى للحديث عنها. طلب أن يقرأ على مسامعها قصيدة نظمها ليأرا الغريب. رحّبت بالفكرة، واستمعت له بكل جوارحها. ذرفت الدموع وحاولت إخفاء خفقات أنفاسها؛ حتى لا يشعر ببكائها. أخبرها أن آخر بيتين من القصيدة حذفهما بعد زواجها. حدّثها عن الصاعقة التي ضربته في الحديقة الصغيرة، قرب عيادة المجمع السكني، وكيف أنه خلال غيبوبته رأى حصاناً أبيض، يقف بين جبال ملونة، مكتوبٌ عليها أبيات من الشعر، هي الأبيات نفسها التي قرأها على مسامعها. طلب منها ألا تتضايق منه؛ لأنه يحدّثها عن حبه القديم. فطمأنته أنها لا تمنع بأن يبوح لها بما في قلبه حتى يرتاح.

قالت نرجس: «ربيع، أريد منك أن تصحبني إلى تلك الحديقة الصغيرة». استغرب من طلبها، لكنه رضي بسرعة قبل أن تغيّر رأيها؛ لأنها كانت ترفض الخروج برفقته لظروفها الخاصة، وحددا موعداً قريباً؛ ليصحبها إلى هناك في نهاية الأسبوع.

* * *

عندما أراد ربيع النورس الخروج لاصطحاب نرجس كما اتفقا، وجد نبيلًا يقف عند الباب، يريد الذهاب إلى السوق لشراء هدية لشهد بمناسبة عيد ميلادها. سأله نبيل: «ربيع، إلى أين أنت ذاهب؟». ردّ عليه قائلاً: «أشعر بالضجر. سأتمشى قليلاً». بصعوبة استطاع التخلّص من نبيل، وخرج من البيت مرتبكًا.

في تلك الأثناء، كانت نرجس في السوق، تنتقل بين متاجر الذهب؛ لتعرض آخر قطعة ثمينة تملكها للبيع. مرّت في الفترة الأخيرة بضائقة مادية، وكانت بحاجة ماسة للنقود لتشتري أدويتها المهدّئة باهظة الثمن، التي لا تستطيع العيش من دونها بعد مشكلتها مع طليقها.

قلبها لا يطاوعها، تفتح العلبة تنظر إلى القطعة ثم تغلقها. نظرت إلى الساعة. توترت أكثر لأن الوقت داهمها وستأخر عن الموعد. حسمت أمرها، وعرضت القطعة على الصائغ، وفي أثناء ذلك دخل نبيل إلى المحل نفسه، لم تلحظه نرجس، لأنها كانت غارقة في هواجسها، وتنظر إلى ساعتها بتوتر. لمح نبيل القطعة في يدها، وجحظت عيناه غير مصدق. دفع لها الصائغ مبلغاً من المال، وغادرت بسرعة لتجيب على هاتفها الذي كان يرن بالبحاح.

طلب نبيل أن يشتري القطعة التي باعتهما الفتاة قبل قليل. تردد الصائغ، لكن نبيلاً دفع ضعف ثمنها، مقابل أن يحصل عليها. تفحص نبيل القطعة من الخلف، وكانت ظنونه في محلها.

اتصل نبيل بهاتف ربيع النورس لكنه لم يجب. كان قلقاً ينتظر نرجس، ولا يريد أن يشغل خط هاتفه الخلوي. طلب نبيل من شهد أن تتصل بشقيقتها لأمر ضروري وعاجل. انزعج ربيع النورس من اتصالاتهم المتكررة، وبعد وصول نرجس، أغلق هاتفه الذي لم يهدأ رنينه.

كان ربيع النورس ينتظر نرجس في حديقة الأمس واليوم، حاملاً باقة من أزهار الزنبق الأصفر. ركباً سيارة الأجرة. شقت طريقها نحو جزيرة أم النار. دخلاً المجمع السكني حتى وصلاً إلى نهايته. طلب ربيع النورس من السائق التوقف بعد الدوار الثاني. توجهها إلى الحديقة الصغيرة بجانب العيادة وهما يهرولان كالأطفال. كان القرص الدوار ما زال موجوداً، ركباه وجلسا على مقاعده. كانت نرجس تضحك بصوت عالٍ بطريقة لفتت نظر ربيع النورس؛ فلأول مرة يراها منفرجة الأسارير وتتصرف على سجيتها معه، على عكس لقاءاتهما الرسمية في منزل شقيقته شهد.

نظر ربيع النورس إلى نجوم السماء، وبدأ يندندن: «يارا اللي جد/يلها شقر فيهن بيتمر جرح عمرا». قالت له نرجس: «هل سامحت يارا؟». ردّ عليها بعد تفكير، ووجهه متجهماً: «لا أعرف». قالت: «أرجوك، سامحها يا ربيع»، ردّ عليها متعجباً من طلبها: «لماذا تريدني مني أن اسامحها!»، قالت: «لأجلك. لا تضع اللوم عليها. تأكد أنها كانت مُجبرة على الزواج. سامحها يا ربيع». تنهّد، ثمّ قال: «وكيف عرفت أنها مُجبرة!». أجابت وهي ترتجف: «مجرّد حدس!». قال: «سامحتها. لأجلك فقط».

شعرت نرجس بسعادة كبيرة، بانت على ملامحها وفي صوتها. أخبرته أن هذه اللحظات لن تنساها أبداً، ولو ماتت اليوم فستكون مسرورة؛ لأنها راضية عن نفسها، ومتصالحة مع قدرها، ثمّ قالت: «وهل يوجد شيء أجمل من أن نرحل عن الدنيا ونحن مُحبين ومحبوبين».

أزعجت سيرة الموت ربيع النورس، ووقف ليحرّك المقود في منتصف القرص ليدور بهما. أخرجت نرجس من حقيبتها كوفية فلسطينية، ولفّتها بحركة سريعة حول عنقها وفوق وشاحها. تأمل ربيع النورس الكوفية لدقائق. سألته نرجس عن سبب سكوته، فقال: «كل شيء فيك يذكرني بيارا الغريب. كل شيء!»، قالت: «ماذا تعني بكل شيء؟»، قال: «الكوفية، القرص الدوّار، المجمع السكني، حتى لون عينيك! كل شيء داخلي يناديها، وأنا في حضرتك!». سألته وهي تنظر مباشرة إلى عينيه: «ماذا كان لون عينيها؟»، قال بلا تردد: «أخضر بلون زيتون فلسطين». هزّت رأسها ورفعته للسماء؛ لتزفر آهًا تُثقل قلبها، ونادت: «يارب».

ركبا سيارة الأجرة التي تنتظرهما. حضنت نرجس باقة الأزهار، ودفنت وجهها فيها؛ كي ترويهما بدموعها الصامتة خفية عن أنظار ربيع النورس السارح بخياله يتلمّظ بذكرياته القديمة مع يارا الغريب، يللم

حنانه لها من كل نقطة في جسمه، ويخزّنه في قلبه، في الزاوية الخاصّة بها دون كل البشر. كالزاوية الثابتة، التي تنمو فيها حبة اللؤلؤ الطبيعي داخل صدفتها. كالزاوية الثابتة، التي كان الفتى الياباني ميكيموتو كويتشي، يزرع فيها أجسامه الغريبة؛ لتنمو لؤلؤاته الغالية الثمينة.

أوصلها ربيع النورس إلى بيتها، وتوجّه إلى منزل شهد. في الطريق، فتح هاتفه المغلق، واتصل ليطمئن على نرجس. ردّت عليه بصوت يغني فرحاً، لكنها فجأة صرخت، ورمت الهاتف من يدها. جن جنونه، وطلب من سائق سيارة الأجرة أن يعود أدراجه.

في تلك الأثناء، اتصل نبيل بهاتف ربيع النورس. قال له نبيل وهو يصرخ: «ربيع، نرجس هي يارا الغريب!».

- ماذا تقول؟

- نعم، اليوم وجدتها في السوق، تبيع قرطي اللؤلؤ اللذين اشتريتهما لها من المعرض عندما كنت معك، هل تذكر؟

- لا أصدق.

- ربيع، هل تذكر الحرفان اللذان حفرتهما خلف القرطين؟

- نعم.

- شاهدتهما شهد، وتأكدنا.

أغلق ربيع النورس الهاتف، والدماء تغلي في رأسه. كان هناك حادث في الطريق وازدحام خانق. قَلِقَ على نرجس بعدما سمعها تصرخ، وتوجّهت شكوكه إلى طليقتها. فكّر في ملامح نرجس، فهي لا تتطابق مع ملامح يارا الغريب. عصفت الظنون والأفكار في خياله.

وصل ربيع النورس متأخراً. كانت الشرطة تطوّق المكان حول العمارة التي تسكنها نرجس. نزل بسرعة من سيارة الأجرة. شاهد الشرطة وهم يلقون القبض على رجل يهذي بكلام غير مفهوم. اقترب

لينظر إليه. انصعق عندما رآه. إنه إبراهيم الخاتم، لكن ما علاقته
بنرجس؟

كان رجال الإسعاف ينقلون فتاة مسجاة على النقالة، ووجهها
مغطى بغطاء أبيض. اقترب منها ربيع النورس وكشف عن وجهها
مذعورًا. فقد أصابت طلقة من مسدس إبراهيم الخاتم فتاة أخرى اعتقد
أنها نرجس. خرجت نرجس من العمارة وهي منهارة تبكي وتحمل
بيدها بوشيه تشبه بوشيات السومريّ التي كان يعلّقها على أبوابهم.
ركض نحوها ربيع النورس وشد البوشيه من يدها فقد أخذته الظنون
أن السومريّ يحوم في المكان، تلقت يمنة ويسرة يبحث عنه، وانهار
على الأرض أمامها ينتحب دافئًا وجهه في البوشيه وهو يصرخ: «من
أنتِ؟». جثت قربه على الأرض وقالت: «أنا يارا الغريب». رفع رأسه
يتأمل وجهها، ثم انفجر صارخًا: «لكنك لا تحملين ملامحها. أرجوك
أخبريني الحقيقة؟ من أنتِ؟».

ساد الصمت بينهما، وسمع ربيع النورس صوت قهقهات السومريّ
في خياله وهو يقول: «عندما تغيرت ملامح حبيبتي لم تعرفها. كنت
تقول إنها وطنك، وهل الغربة تجعلنا لا نعرف وطننا».

* * *

استضافت شهد وأسرتها يارا الغريب في منزلهم. وعندما قرّرت أن
تروي لهم حكايتها كان الجميع مترقبًا لسماعها. جلس ربيع النورس
على الكرسي مقابلها خائر القوى، متحجر النظرة.

أخبرتهم أن والدها اضطر إلى تزويجها من الخائن إبراهيم الخاتم
الذي جاء يزوره حاملاً صورة شقيقه طه الغريب. هدّده بأن يبلغ عن
الصفقات التي يبرمها طه مع دول مجاورة لشراء الأسلحة كي يرسلها
إلى كتائب عز الدين القسام. كان ثمن سكوته أن يتزوج من يارا، ولا

يشي بشقيقه. لم تتمكن في ذلك الوقت من شرح الموضوع لربيع النورس حتى لا يؤذيه إبراهيم الخاتم، وتجرّعت وحدها مرارة الحياة وقسوة الظروف.

سألته شاهد عن سبب تعيّر ملامحها، فأجابت وهي تتلمس بيد متوتره الشال الصغير الذي تلفه حول عنقها: «كان إبراهيم الخاتم دائماً يتهمني بأني ما أزال أحبك يا ربيع، وفي أحد الأيام عاد من الحانة وكان قد شرب الكثير من الكحول. بدأ بيننا شجار تصاعدت حدّته وإذ به يلقي على وجهي مادة كيميائية حارقة شوّهت وجهي. اضطررت لإجراء عدة عمليات تجميل؛ فتغيرت ملامحي بسبب الضرر الكبير الذي لحق ببشرتي، وبقيت بعض آثار الحروق على عنقي لم تشفَ بعد. لم يتحمّل والداي المزيد الدّل، وانفصلت عنه».

استطردت وهي تمسح دموعها: «لم يتركني إبراهيم الخاتم وظلّ يهدّدني بالقتل بعد أن حكم لي القاضي بحضانة ابني كونه غير مؤهّل لرعايته».

سألها ربيع النورس مندفعاً بعد أن قطع عليها الكلام: «يارا، لماذا لم تكشفني لنا شخصيتك وغيرتي اسمك؟»، أجابت وهي ترتجف: «ارتبكت عندما شاهدتك أول مرة في المارينا مول، ولم أصدّق أنني بعد كل هذه السنين سأعود وأراك مرة أخرى».

أخفت يارا الغريب السبب الحقيقي وراء ذلك، فقد أرادت أن تختبر قدرة قلبه في التعرّف عليها رغم تعيّر ملامحها؟ أمسك ربيع النورس رأسه غير مصدّق، وطأطأ به نحو الأرض، يبكي بصمت غير مصدّق ما يسمع ويرى.

أعطتها شاهد قرطي اللؤلؤ. وعندما استأذنتهم لتغادر. وقف ربيع النورس يحاول أن يبقّيها للمزيد من الوقت لكنها لم ترصّ وخرجت.

نزل معها إلى الشارع كي يوصلها إلى سيارتها. أمسك يدها وقال لها وهو يتأتمى: «ي ي يارا، دعينا نفتح صفحة جديدة؟»، قالت وهي تسحب يدها من يده لتفتح باب السيارة: «لا أستطيع، لقد تأخرت يا... ربيع». بلعت كلمة حبيبي وغصت بها.



مرت الأيام وربيع النورس لا يخرج من حجرته، ارتفعت درجة حرارته ولزم الفراش. تتابعت الليالي وعاد الحصان الأبيض يظهر في منامه، يركض بين الجبال الملونة، وعندما وصل الحصان إلى البحر، سهل بصوت عالٍ؛ فاستيقظ وقلبه يخفق بقوة، يلهث بأنفاس متتابعة، ويشعر بالظماً الشديد.

سمع صوتاً من داخله يقول له: «احمل فؤادك واذهب إلى البحر». وضع يده على قلبه يتلمس خفقاته، وقام من سريره المبلل بعرقه. نظر من النافذة، ووجد الليل يتسلل عبر الكون. أخذ نفساً عميقاً وشم رائحة البحر التي نكأت جوارحه. استحم ولبس ملابسه الكتانية البيضاء وخرج سيراً على الأقدام إلى الكورنيش.

كان القمر بدرًا. البحر بمده العالي للأمام يروي رمال كورنيش أبو ظبي، وينثر عليها الأصداف التي ظهرت مع انحسار الماء إلى الخلف مع الجزر. مشى بخطوات شاردة ينصت إلى صوت الأمواج المتكسرة على الصخور، شعر برذاذ الماء على وجهه المتبيس ليصبح ندياً ويغيب في خيالاته عندما وقف يتأمل زبد البحر الأبيض المتجمّع عند حافة صخور الكاسر، وخيّل له أن من كل موجة تتطاير النوارس البيضاء الصغيرة التي علت في الأفق لتكبر شيئاً فشيئاً، تحرك بأجنحتها الهواء الرطب، وترسم بتحليقها حوله في الفضاء وجه يارا الغريب. شعر بجسده خفيفاً وبأن قدميه لا تلمسان الأرض، يريد أن يصل ليلمس صورة وجهها التي عانقت القمر.

هو ابن البحر. ولا ينتمي سوى للبحر. أغلق عينيه، وفكّر كثيرًا
بمعنى الوطن. هل هو موطن أجداده؟ هل هو المكان الذي وُلد فيه؟
هل هو المكان الذي نجد فيه أحبتنا؟ من اخترع قصة الأوطان: أسماءها
وحدودها الجغرافية وجوازات سفرها الورقية وأعلامها وأغانيتها؟ من
فرض علينا الانتماء إلى مكان واحد؟ ومن الذي رسم لنا حلم العودة؟
أنا ربيع النورس ابن البحر. على كل شاطئ تولد بنوارس.. تسافر..
تهاجر.. تقترب.. وتبتعد. فلا انتماء إلا للبحر.

والوطن؟

وطني حيث الحب. وطني حيث الحياة. وطني هو شعلة القلب.
أما فلسطين فهي الوطن الذي نحلم ونتمنى كل يوم أن نعود إليه.
عندما فتح عينيه رأى بريق قرطي لؤلؤ يومضان من بعيد. بلا سابق
موعد، كانت يارا الغريب تمشي أمامه تمسك بيدها صدفه توشوشها
وكأنها تبوح لها بأسرارها. اقترب منها يريد أن يتأكد هل صورتها حقيقية
أم من وحي خياله. مد نحوها كلتا يديه، وأغلق عينيه ينتظر ملمس بشرتها
في يديه كي تطفئ نار قلبه المشتعل. وضعت يارا الغريب يدها في يد ربيع
النورس. أصبحت يده نديّة بالشوق، ضمهما بقوة، وفتح عينيه ليجدها
حقيقية وليست خيالاً.

اقتربت منه ووضعت رأسها على صدره لتسمع نبض قلبه. غمرها بين
ذراعيه، ونظرا صوب سماء امتلأت بنوارس تحوّلت إلى أحصنة بيضاء
طارت نحو القمر، وصهلت بأغاني قصتهما الغريبة.

تمت بحمد الله

الشكر

أتوجّه بالشكر الجزيل إلى الصديق الصدوق جعفر حيف على دعمه لي أثناء كتابة المخطوط. وكل العرفان لأستاذ الأدب العربي في الجامعة الأردنية الدكتور عبد الله المانع. والشكر الكبير للناشر حسن ياغي.

أشكر الشاعر الجميل محمد أكرم السالم، الذي أهداني قصيدته (شروذٌ في ذاكرة الليل)؛ كي تنير دفتي روايتي.

لكن ما هي حكايتي مع الشاعر والقصيدة؟

سمعت الشاعر وهو يلقيها في رابطة الكتاب الأردنيين، خلال مهرجان بشاير جرش في حقل الشعر العام ٢٠١٧. في تلك المدة كنت قد بدأت في كتابة المخطوط الرئيسية لروايتي (قلوب من نار)، وبطل الرواية ربيع النورس في بدايات تشكل ملامحه في ذهني وأنا أرسم مسار الحوادث في الرواية. كانت الأبيات الشعرية التي ألقاها الشاعر بأسلوبه وأحاسيسه قد لمست في داخلي شخصية البطل وكأنها إشارة كونية كي استمر في كتابة المخطوط. تأثرت بالطريقة التي ألقى فيها الشاعر قصيدته ودعمت عيناى، حتى إنه استطاع أن يلتقط تلالؤ الدمعة وسألني بعد الأمسية: «لماذا بكيت؟». قلت: «شعرت للحظة بأن بطل الرواية أصبح أمامي، وقصيدتك هي صوته الخفي عندما تختفي حبيبته».

